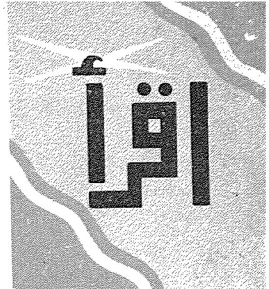
عبد الستار الطويلة

الإنسان الأوربي في الجد واللعب



لبنان ١٠٠ ق.ل   سوريا ١٠٠ ق.س   الأردن ١٠٠ ف.أ
العراق - الكويت ١٠٠ ف.ع الخليج العربي ١٠٠ ف السعودية ٢ ريال
عدن ٢,٥ شلن   السودان ١٢٠ مليما   ليبيا ١٥ قرشاً
تونس ٢٠٠ مليم   الجزائر ٢,٢٥ دينار   المغرب ٢,٢٥ درهم



تصدر في أول كل شهر

رئيس التحرير : عادل الغضبان



دار المعارف بمصر



عبد الستار الطويلة

الإنسان الأوربى

فى الجد واللعب

اقرأ ٣٢١

دار المعارف بمصر

اقرأ ٣٢١ – سبتمبر سنة ١٩٦٩

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج.ع.م

الإهداء

إلى زوجتي :

التي دفعت وحدها من الأعصاب والانتظار ... والترقب ...
ثمن هذه الرحلة وغيرها من الرحلات الطويلة ... إلى أوربا ؟ ! ...

عبد الستار

يوليو ١٩٦٨

أعترف أنى لم أنم الليالى الثلاث السابقة على سفرى من القاهرة إلى باريس ! .

كانت تلك أول مرة أخرج فيها من مصر . . . إلى أوربا . . . أو إلى أى بلد آخر . . . وكنت متحمساً للسفر لسببين : سبب شخصى . . . وسبب آخر مهنى . . .

السبب الشخصى أنى كنت أشعر أن ثمة نقصاً هائلا فى تكوين أى مثقف وثقافته ينبع ، عادة ، من عدم احتكاكه بتجارب وثقافات الشعوب الأخرى بطريقة غير طريقة الكتب وأفلام السينما والمسرح والإذاعة . . . فالاحتكاك الحقيقى يكون بالحياة ، حياة ذلك الشعب . . .

وكنت أحس أحياناً وأنا أتجول فى ربوع البلاد . . . من مدينة إلى مدينة ومن كفر إلى كفر ومن صحراء إلى صحراء . . . ومن واحة إلى واحة . . . أن الرمال أحياناً فى الصحراء الرحبة أسوار سجن يحجب عنى نور المعرفة والتجربة . . . من العوالم الأخرى . . . وأود لو أطير . . . متجاوزاً تلك الأسوار . . . لأرى العالم أو بعضه وأعود . . .

والسبب الثانى سبب مهنى . . . فلقد جاء وقت أحسست فيه أن الكلمات تتجمد على أطراف قلمى . . . وأننى أكرر ما أقول . . . وأنى محتاج إلى زاد جديد من النظرية والتجربة معا . . . لأمزجه بالواقع . . . فيتحول كلمات حارة ملتهبة تذيب الجليد، لا أن تكون هى جليداً يشل قلمى وحريته عن الحركة . . .

من ثم كان الانفعال . . . وترقب ساعة دوران محركات الطائرة . . .

وأقول الحقيقة ... لقد كانت التجربة تستحق أرقَ ؛ لا أيام ثلاث ... بل ثلاثين ! .

والمفروض أن يكتشف القارئ تلك الحقيقة بين صفحات ذلك الكتاب الكثيرة .

ومع ذلك فإنى لم أنته بعد من تسجيل كل ما شاهدت وما انفعلت به فى سبعة بلاد أوربية فى الغرب . وفى رحلة واحدة فقط استمرت ستة شهور .

لقد كان كل يوم قضيته فى أوربا . . . يوماً طويلا . . . يمتد أكثر من طول اليوم المألوف ، لأنه مشحون . . . بالكثير جداً مما أرى . . . وممن أقابلهم . . . ومما أتفاعل به . . .

ولقد عشت الحياة الأوربية من حضيض الدرك الأسفل فيها . . . إلى قمة حياة الفكر وسموه . . .

لا أحسب أنه من المناسب أن أكرر هنا . . . ولو بشكل موجز . . . ما سيقرؤه القارئ فى الصفحات المقبلة . . .

ولكنى أقول . . . إذا كان الشاعر العربى قد قال منذ مئات السنين : « سافر ففى الأسفار سبع فوائد » ... فالحقيقة أنها ألف فائدة وفائدة ... ولكنها قد تكون بلا فائدة على الإطلاق ... ذلك يتوقف على المسافر نفسه... ولكن على أى حال فإنه من دلائل التحضر . . . أن يرصد المرء فى ميزانيته ما يستطيع به أن يدبر سفرية إلى هنا أو هناك . . . ذلك أمر لا يقل أهمية عن الطعام واللباس . . .

وإذا كان كل قارئ بعد أن يقرأ هذا الكتاب سيشرع فى اتخاذ خطوات عملية . . . لتحقيق هذا . . .

وإذا كان سيبدأ يفكر . . . فى كيف يستفيد مما اكتسبه من خبرة فى سفريته . . . لإصلاح وتطوير نفسه وعمله هو . . . أو مجال عمله . . . كذلك .

فإن ذلك الكتاب يكون قد أدى مهمته أو جزءاً منها . . .

عبد الستار الطويلة

باريس . . . بسرعة !

أعتذر إلى شركة الطيران العربية لأنى كتبت مرة أنتقد سوء الخدمة فى طائراتها، وأعتذر إلى رجال الجمارك فى الموانى والمطارات لأنى كنت أعطف على ما يوجه إليهم من انتقادات من بعض زملائى الصحفيين ! .

وأعتذر إلى المسئولين عن المواصلات فى القاهرة والإسكندرية لأنى كنت أتصور أنهم عجزوا على اللحاق بزملائهم فى بلاد أوربا الذين كنت أتصور أنهم وجدوا حلاً لمشكلة المواصلات ، بينما نحن فى مصر نغط فى النوم . . .

وأعتذر عن أشياء كثيرة : . . لم أكتشفها إلا فى رحلتى الأولى إلى فرنسا وأوربا . . .

هل من المعقول أن تسافر من القاهرة إلى باريس لمدة ست ساعات ولايقدم لك أحد إلا الشاى والبسكوت ويتركونك فريسة للجوع وإلا بددت العملة الصعبة القليلة فى جيبك ؟ . . وعند ما لايقدمون لك غداء أو عشاء فى خطوط مصر الداخلية فهم معذورون لأنها ساعة أو ساعتان وتهبط المطار . . . ولكن ما عذر الخطوط الجوية ذات الصبغة العالمية ؟

وما عذر تلك الخطوط أن تتركك ضائعاً فى مطار جنيف ؛ لا أحد يسأل عنك ليأخذك إلى باريس !

وعند ما يفتح رجل جمارك حقيبة سائح من السياح . . . نثور عندنا ونقول إن رجال الجمارك يخربون السياحة ويسدون مجرى نهر الذهب الذى يروى البلد الظمآن إلى التنمية والتقدم . . .

ولكن . . . إننا فى فرنسا ! البلد السياحى العريق ... وذو التقاليد . . . كنت أود أن يتفرج كثير من الناس فى بلادى على ما حدث فى المنطقة

الجمركية الفرنسية فى مطار جنيف معى أنا وزميل كويتى حيث كنا نحن العربيين الوحيدين المسافرين إلى باريس . . .

لقد كانوا فى منتهى الوقاحة . . . عاملونا بجفاف . . . وفتشوا حقائبنا بغلظة . . . وصاح رجل الجمرك الفرنسى عند ما رأى فى حقيبتى حذائين ! ! . . .

ولم تتوقف هذه الوقاحة إلا عند ما رددت عليهم التحية بعشرة أضعافها! وانفجرت أنهرهم و « ألعن خاشهم » — بالفرنسية — حتى لا يظن أحد من القراء أنى احتميت وراء جهلهم بالعربية !

ومنذ اللحظة الأولى التى وقفت وظهرى لمطار باريس أشم هواء المدينة الكبيرة لأول مرة وأحاول بعينى اكتشافها وهى ترقد تحت تلك النقط اللانهائية من الأضواء المتألقة . . . على مسافة عشرين كيلومتراً من المطار . . .

أحسست بمشكلة المواصلات على الفور . . .

لقد مكثت واقفاً أمام المطار أكثر من ربع ساعة حتى استطاع صديقى روجيه سيرا مدير مجلة التريبيون استخراج سيارته من بين عشرات من صفوف السيارات المتراصة فى الساحة الهائلة أمام المطار والتى تعتبر جراجاً تدفع ثلاثة فرنكات مقابل انتظار السيارة فيها !

وكنا نسير فى الطريق السابع — هكذا يسمون بعض الطرق الكبيرة — ومع أن الطريق كان واسعاً وطويلا ، إلا أنه كان مزدحماً . .

وبدت تحت أقدامنا من بعيد باريس كأنها سماء أرضية انتظمتها ملايين النجوم . . . وكلما اقتربنا من نهاية العشرين كيلومتراً . . . كلما تضخمت الأضواء وتنوعت ألوانها . . . بيضاء . . . وحمراء . . . وخضراء وصفراء . . .

وما دخلنا من باب إيطاليا — أحد مداخل المدينة — حتى بدأت متاعبنا مع المواصلات . زحام لا مثيل له . . . حتى لأن السيارات تزحف

أحياناً كالسلحفاة . . . ويضاعف من الزحام أن الشوارع ضيقة عن مساحتها الأصلية . . . إذ على الجانبين . . . تتراص السيارات واحدة وراء الأخرى . . . فالشوارع هى جراجات باريس . . . وواحدة من المشاكل الجدية التى تواجهك إذا كنت صاحب سيارة أن تجد مكاناً تركن فيه السيارة . . .

وعند ما أعربت عن دهشتى من الزحام قال صديقى . . . انتظر حتى ترى المترو . . . والحقيقة أنى عند ما رأيته . . . التمست العذر لهيئة النقل العام عندنا . . .

إن أكثر السيارات ازدحاماً فى القاهرة وهى القادمة من شبرا الخيمة مثلا فى الصباح ، وترام العباسية ؛ لا يمكن أن يقاسا بزحام المترو فى باريس ، فى الصباح من السابعة حتى التاسعة، ومن الخامسة والنصف حتى السابعة والنصف .

الناس كتل بعضها فوق بعض ، وليس هناك سلم أو باب مفتوح فكلها مغلقة . . . والممرات بين أرصفة المحطات مكتظة،والناس كالأمواج فعلا وهم يصعدون ويهبطون فى سرعة وعجلة دائمتين. . . ويمكنك أن تتحدث عن الاختناق والضيق . . . وأنت أصلاً تحت الأرض !

ولكن المدهش أنك لا تجد تذمراً بين الناس من هذا الزحام . . . فهم فيما يبدو قد تعودوا عليه . . . وأدركوا أسبابه . . . ويعيشون على أمل خط المترو الإكسبريس الجديد الذى يحفرون فيه منذ عامين ولن ينتهى قبل ثلاثة ! ..

ولا تجد أحداً لا يستطيع أن يهبط من المترو فى المحطة ، فالقطار ينتظر حتى ينزل آخر راكب ولو تعطل . . . وثمة كمسارى . . . هو الكمسارى الوحيد فى القطار ذى الخمس عربات – يراقب عملية النزول والصعود ، ثم يغلق الأبواب الأوتوماتيكية – ويصدر إشارة التحرك للسائق . . .

ولن تجد سائق أوتوبيس يترك المحطة وراءه ويخلفها كالهارب ! . وإنما لا بد أن يقف . . . ومع كل هذه العناية بالوقوف ونزول الركاب وصعودهم فإن المترو يقطع أطول المسافات (٢٠ كيلومتراً) فى نصف ساعة فقط على الأكثر ! .

وأنت تلحظ عناية هيئة النقل الفرنسية بالناس . . . فأمام كل محطة مترو . . . خريطة لخطوط المترو فى المدينة كلها . . . ثم عند ما تنزل تحت الأرض لتركب . . . تجد خريطة أخرى أمامها لوحة المحطات الرئيسية جميعاً . . . وأمام كل محطة زر تضغط عليه فيضىء على الخريطة لتعرف طريقك وأى مترو تركب . . . ثم خريطة أخرى للحى الذى تقع فيه المحطة . . .

وبعد ذلك سلسلة من اللافتات ترشدك إلى رصيف القطار الذى تريد أن تركبه . . . بحيث لا يمكن أن تتوه ، فهذه اللافتات تطاردك ! . . .

وعلى الرصيف نفسه تجد خريطة أخرى . . . واسم المحطة مكتوب فى خمس أو عشر لافتات متتالية حتى تراها والمترو يدخل المحطة . . .

فى اليوم التالى لوصولى باريس كنت أسير وأنتقل من مكان لآخر وحدى بفضل هذه الإشارات المتتالية . . .

وعند ما أتذكر كيف أنه لا توجد فى محطة رئيسية واحدة ، وليس فرعية ، للأوتوبيس أو للمترو أو للترام فى بلادنا أى خرائط أو لافتات توضيحية . أتساءل ألم ير المسئولون مثل هذه التقاليد النافعة فى بلاد أوربا التى زاروها .. لماذا لم يستفيدوا بها وهى لن تكلف كثيراً . . . إنها فقط . . . تكلف الاهتمام بالإنسان . . . فى ميدان التحرير مثلا تجد عشرين خط أوتوبيس . لافتات صماء مكتوب عليها ٤٦ — ٥٠ — ٤٤ — ٥٠٠ ، ولا تعرف إلى أين . . . إلا إذا جاء الأوتوبيس ومكتوب عليه اتجاه كذا فقط ! ...

ومعذرة لمؤسسة النقل ؛ فإذا كنا نعذرها فى أشياء . . . فلا عذر لها فى أشياء أخرى . . .

* * *

لنترك مسألة المواصلات . . . فى القاهرة ونعود إلى باريس . . .

السيارة تقوم بجولة فى المدينة . . . وأحس بشعور غريب . . . إن الأضواء هنا أقل مما كنت أتصور فى مخيلتى عن مدينة النور . . . التى كنت أتصورها حقاً شعلة من النور تقذف المار بها بكرات من الضوء !..

وفى شارع الشانزليزيه أدركت لماذا أسموها مدينة النور . . . إن أضواء النيون فى الشارع من أجمل المناظر التى يراها الإنسان فى حياته . . . إنها ليست أضواء صارخة تخطف البصر كما نرى شوارع نيويورك فى الأفلام الأمريكية . . . إنما هى أضواء قوية وهادئة فى الوقت نفسه . . . فيها جلال ووقار . . . ربما يرجع إلى عراقة التاريخ فى المدينة والأمة الفرنسية كلها . . .

إنهم هنا يرتكزون على قاعدة من التاريخ المجيد منذ أيام جان دارك . . وثورة روبسبير ، وكومونة باريس ، وحصار باريس مرتين فى أقل من قرن . . . وهل تحترق باريس أثناء الاحتلال النازى حيث لا يخلو شارع أو حارة من بيت تجد لافتة عليه ، مكتوباً عليها : هنا قتل الألمان المواطنة فيوليت باردى لأنها كانت من الماكى أى من المقاومة ... هنا فى هذا البيت قرر بوليس باريس الإضراب . . . هنا فى بلدية باريس كان مقر حكم عمالها لمدة لا تزيد على سبعة أسابيع . . . هنا . . . وهناك تاريخ مجيد . . . يشع نوراً إلى النفوس والقلوب معا . . .

وتهدئ السيارة . . . لأرى مقاهى باريس الفريدة . . . نظيفة أنيقة كأنها صناديق من زجاج شفاف كأنه الهواء . . . جلس الشبان والشابات « بالمينى جيب » سيقانهن جميلة بيضاء كالمرمر . . . والكل يتحدث . . . أو يتعانق . . . أو يقرأ كتاباً أو جريدة . . . أو يحملق بلا هدف فى المارة وفى الشارع . . .

ويقف فى نهاية الشانزليزيه كالمارد الجبار على ساقين من جدارين هائلين قوس النصر الشهير الذى سلطت عليه الأضواء فبدا كأنه الماضى يطل على الحاضر . . . ويتفرع من تحت أقدامه اثنا عشر طريقاً عريضاً من بينها شارع يينا الذى تقع فيه قطعة من أرض الوطن . . . السفارة المصرية يرفرف عليها العلم المصرى الذى تحس بمعناه وقيمته الحقيقية وأنت فى بلد غريب ! . . .

وثمة دور سينما كثيرة فى الشارع . . . واحدة منها تعرض فيلم دكتور زيفاجو منذ ثمانية شهور ... وأخرى رجلاً وامرأة ... واللص . . . وأختى .. عشيقتى ! . . . وفاتنات روشفور . . . ومن يخاف من فرجينيا وولف . . وأفروديت الصغيرة . . . والخروج . . . و . . . وعشرات الأفلام ، بل مثاتها . . . ففى باريس وحدها ٢٨٠ داراً للسينما . . . وخمسة وعشرون مسرحاً . . .

وثمة أفلام تعرض فى عشر دور للسينما فى وقت واحد... ولا مكان لفيلم مصرى واحد للأسف ، ولا أدرى لماذا ؛ وهنا أفلام من اليونان وبلجيكا وفنزويلا ! ! . . .

وعلى جانبى الشوارع توجد محال تجارية كثيرة . . . ومطاعم . . . ومقاه وصالونات حلاقة . . . وبقالون . . . سواء فى وسط باريس أو فى أطرافها فليس للمدينة قلب واحد . . . بل عدة قلوب . . . ليس هناك تركيز على مكان معين مثل المنطقة المركزية فى وسط المدينة عندنا بل النشاط موزع فى كل أرجاء المدينة . . . ولذلك لا تستطيع أن تقول إن هناك شارعاً أو عدة شوارع معينة . . . هى مركز باريس . . . بل إن الشوارع الرئيسية بالمعنى المعروف عندنا فى مصر . . . تبلغ المئات . . . برغم أن المدينة لا تزيد على أربعة ملايين كالقاهرة تقريباً . . . صحيح أن الضواحى تمثل حوالى مليونين أيضاً . . . ولكن هذه الضواحى بعيدة وإن كانت قطارات الضواحى السريعة تجعلها قريبة . . .

والشوارع فى باريس عريضة . . . وتبدو المدينة رحبة واسعة . . .

لأن مبانيها لا تزيد على خمسة أو ستة طوابق . . . وإن كانت هناك عمارات جديدة تزيد على العشرة طوابق تقوم هنا وهناك . . .

وثمة أحياء فى باريس تشبه أحياء فى القاهرة . . . بل أحياء كالأزهر والموسكى والجمالية ؛ الشوارع ضيقة . والمبانى قديمة متهالكة . . . والفرق فقط فى وجود اللافتات بالفرنسية بدلا من العربية . . .

وهى أحياء يسكنها فقراء باريس . والمغاربة والجزائريون والفرنسيون . . . وأكثرهم ما عدا العمال استوطنوا باريس ، ويقومون بأعمال التجارة الصغيرة ويحاولون نسيان أصلهم العربى «والتفرنس» ! . . .

ونعبر نهر السين . . . من واحد من عشرات الكبارى المقامة عليه . . . وهى كبار تبدو عتيقة قديمة تضفى على النهر جلالاً غريباً برغم أنه يشبه الرياح المنوفى إذا قورن بنهر النيل العظيم عندنا . . . ونمر أمام كاتدرائية نوتردام الشهيرة . . . ضخمة هائلة ؛ ويشير صديقى الفرنسى إلى مبنى كبير أمامها ويردد مثلا فرنسياً : « السيف والماء المقدس متلازمان دائماً » . . . وعند ما أستوضحه يقول هذا مبنى البوليس الفرنسى . . . وكان فيكتور هيجو قد قال يوماً تلك العبارة إشارة إلى التحالف بين الكنيسة والدولة ! .

وننحدر إلى الحى اللاتينى . . . أشهر حى فى باريس بل فى فرنسا كلها . . . على الأقل بالنسبة للعالم الخارجى . . . وهو حى عادى كسائر أحياء باريس . . . ولكن شهرته مستمدة من تقاليده . . . التى لم تنشأ من الهواء . . . وإنما من طبيعة سكانه ، ومعظمهم طلبة وغرباء عن باريس . . . قدموا من كل أنحاء فرنسا ... والأهم من كل أنحاء العالم ... وانطلقوا ... ولم يكن لانطلاقهم حدود . . .

بينما تنام المدينة من الساعة الحادية عشرة ، ويتوقف الأوتوبيس والمترو من الواحدة ، يسهر أهل الحى حتى الصباح أحياناً . . .

والشبان والشابات يسرحون فى الشوارع متخاصرين . . . متعانقين . . يقبلون بعضهم بعضاً على النواصى . . . وفى المقاهى . . . ويدخلون نوادى

أشبه بالكهوف يرقصون فى صخب ويغنون . . . ويتصايحون .

والبعض يطلق ذقنه . . . وشعره . . . حتى لا تفرقه عن النساء . . . وبنات يحلقن شعورهن كالصبيان . . . وبنطلونات ... ضيقة وواسعة . . . وجاكتات فوق شورت . . . وفلاسفة ومتأملون . . . ومجذوبو علم . . . وصعاليك علم . . . يتصعلكون باسم البعثات . . . ومتفرغون فعلاً للعلم حتى ليصابوا بانهيار عصبى ! . . .

وناس يرفعون عقيرتهم بالغناء فى الطريق العام . . . وشبان يصرخون : الحارس الأحمر . . . الماركسى اللينينى الحقيق . . . وآخرون يوزعون منشورات : ڤيت كونج = قتله . . . المنجل والمطرقة = الموت ! . . . وآخرون يجمعون أموالاً لمساعدة الڤيت كونج . . . ويوزعون بيانات لبول سارتر عن حرب ڤيتنام . . .

أمريكيون وإنجليز ونرويجيون وسويديات على حل شعرهن وسنغاليون وكمبوديون ومن تاهيتى ومن إيطاليا ومن الجزائر ومن مدغشقر . . . ومن كل مكان فى العالم ! . . .

وفى أحد الشوارع الجانبية . . . تمرق على المكتبة . . . لتجد سكوناً يلف مئات قد جلسوا أمامهم الكتب يقرءون . . . وبعضهم يمكث من التاسعة صباحاً حتى السابعة مساء . . . وعلى مناضد الاطلاع ليس من اللائق تقبيل زميلتك ، ولكن يمكن أن تقوما إلى صالة الفهرس وتتبادلا قبلة ؛ ثم تعودان وهكذا . . .

وحديث لا ينتهى عن باريس وعن فرنسا ، ولكن جولتنا هذه المرة جولة سريعة . . . فهى جولة بالسيارة . . . وغداً نسير على الأقدام نمسح أرض باريس وأركانها شبراً شبراً . . .

كانت مهمتى الأولى فى باريس . . هى تغطية أخبار الانتخابات الفرنسية فى فرنسا . .

لقد هبطت الطائرة مطار أورلى فى التاسعة مساء يوم أول مارس ١٩٦٧ . . وموعد الانتخابات يوم ٥ مارس . .

وفى الصفحات التالية . . صورة عن كيف يمارس الفرنسيون السياسة . . إنهم يمارسونها بنفس البراعة التى يمارسون بها الحب ! .

اجتماع الأسرة حول التليفزيون

أهم الاجتماعات الانتخابية . . فى فرنسا

ملأت شاشة التليفزيون ساعة كبيرة يشير عقرباها إلى الثامنة والنصف . . . وعلى الفور ظهر رجل أنيق يرتب أوراقاً أمامه على عجل . . . وخلع ساعة يده ووضعها على المائدة وأخذ يقرأ وخلفه يتحرك عقربا الدقائق والثوانى فى سرعة . . . وبعد دقائق قليلة ظهر القلق على المتكلم . . . وأخذ يختلس النظرات إلى ساعة يده الموضوعة أمامه بينما « معدل » السرعة فى قراءته يتزايد ! . حتى بدا كأنما هو يلهث ! .

وما كاد عقرب الدقائق يشير إلى التاسعة إلا ثلثاً ، حتى قام الرجل جامعاً أوراقه فى عجلة وشبه ارتباك ليجلس مكانه على الفور رجل آخر كأنما كان ينتظر دوره فى طابور . . . وأعاد القصة من جديد . . . ثم تلاه رجل ثالث ورابع .

أمام ساعة التليفزيون فى تلك الساعة يتجمع أغلب سكان باريس متابعين فى اهتمام غريب كلمات الرجال المتعجلين . . . والتعبيرات المختلفة على وجوههم . . .

وبعد أن ينتهى البرنامج اليومى . . . يبدأ الحديث فى البيوت بين أهالى باريس حول المتكلمين الكبار وبرامجهم المتنوعة . . . فهنا فالديك

روشيه زعيم الحزب الشيوعى . . . وبومبيدو أحد قادة حزب ديجول حينذاك . . ومنديس فرانس عن الحزب الاشتراكى الموحد . . . وميتران قائد اتحاد اليسار . . . وليكانويه ممثل الوسط الديمقراطى « الأمريكى » كما يصر معارضوه على تسميته سواء من اليمين أو اليسار . . .

وعند ما وصلت باريس أول الشهر الحالى، وطلبت حضور اجتماعات انتخابية . . . أخذونى إلى صالونات البيوت أمام شاشة التليفزيون ! .

فهذه الاجتماعات « البيتيه » حول التليفزيون من أهم الاجتماعات الانتخابية فى فرنسا ! .

هناك اجتماعات فى نوادى الأحزاب وقاعات الاجتماعات التى تؤجر لقاء أجر فاحش (حوالى مائة جنيه فى اليوم) ولكن تلك اجتماعات لا يحضرها إلا بضعة ألوف قليلة . . .

أكبر اجتماعين انتخابيين شاهدتهما . . . اجتماع للمرشح الديجولى كوف دى مورفيل وزير الخارجية حضره حوالى ثلاثة آلاف فقط . . . والاجتماع الآخر لمرشح شيوعى حضره السكرتير العام للحزب الشيوعى روشيه ولم يكن هناك أكثر من هذا الرقم . . .

ليس هناك سرادقات وأعلام مرفوعة . . . وهتافات تشق عنان الفضاء . . .

إنما يبدأ الاجتماع بتصفيق للمتكلم . . . وتقاطع خطبته أحياناً بالتصفيق . ثم يختتم الاجتماع بشىء يشبه القسم . . . نتعهد بانتخاب فلان كما نعمل على كسب أكبر عدد من الناخبين له . . . ثم ينصرف الباريسيون فى هدوء . . . إما إلى بيوتهم . . . أو إلى دور السينما . . . أو المسارح . . . أو فنادق الغرام ! .

ومن المألوف أن ترى الشبان والشابات يتعانقون فى قبلات ملتهبة بعد أن يخرجوا من الاجتماعات الانتخابية الملتهبة أيضاً ! .

وفى جرينوبل حضرت اجتماعاً انتخابياً تطوع بالغناء فيه جاك بريل

أشهر مطربى فرنسا . . . للدعاية لمنديس فرانس . . . المرشح الوحيد الذى سحب الحزب الشيوعى مرشحه من الدائرة من أجله . . .

وبعد أن انتهى جاك بريل من الغناء فى الاجتماع الانتخابى هجمت عليه بعض الفتيات يقبلنه . . . ويحصلن على توقيعه أيضاً ! . . .

إنك تحس بحيوية الشعب الفرنسى واهتمامه بالانتخابات . . . ولكن هذه الحيوية وذاك الاهتمام مقيدان بقيود نظامية عديدة . . .

لافتات الدعاية للمرشحين ليست ملصقة جزافاً فى أى مكان . . . إنما هناك أماكن معينة حددها البوليس لكل مرشحى الهيئات والأحزاب وهى متجاورة ومتقابلة . . . لا يمكن أن ينفرد حزب ببقعة معينة . . . بل لا بد من تجاور ملصقات المرشحين جميعاً . . .

وليس هناك لافتات من القماش بعرض الشارع . . .



الانتخابات الفرنسية

وليس هناك مظاهرات تقوم فى أى وقت . . .

وإنما هناك مسيرات . . . تنظم بالاتفاق مع البوليس . . . ويمشى فيها المتظاهرون فى وقار يحملون لافتات على صدورهم وفى أيديهم . . .

ولأول مرة تتولى الدعاية الانتخابية شركات متخصصة فى هذا المجال . . ومن أطرف المفارقات أن الشركة التى تنظم حملة الدعاية لمرشحى ديجول هى نفس الشركة التى نظمت حملة الدعاية لمنافس ديجول فى انتخابات الرئاسة جان ليكوانيه فى ديسمبر ١٩٦٥ ! .

وهذه الشركات الدعائية تتحكم فى أسلوب الدعاية إلى الحد الذى تحدد فيه الوضع الذى تظهر به صورة المرشح . . . مبتسما . . . جاداً — بروفيل . . . واقفاً . . . واضعاً يده على خده فى وضع فلسفى . . . لابساً « عفريتة » . . . ممسكاً بمفتاح إنجليزى . . . يربت على خد طفلة . . . طفلة . . . إلخ ! . . .

وتوجد أحزاب « فقيرة » تحاول الاعتماد على الجماهير فى تمويل حملتها الدعائية مثل الحزب الاشتراكى الموحد،والحزب الشيوعى الذى تجد فى كل الاجتماعات الانتخابية شباناً وشابات يحملون أعلاماً فرنسية بين أيديهم يطالبون كل داخل أو خارج من الاجتماع بالتبرع لتمويل حملة الدعاية للمرشحين . . . وفى كل الاجتماعات التى حضرتها لاحظت أن هؤلاء الشبان جمعوا صرراً من النقود ابتداء من السنتيم إلى المائة فرنك ! . وثمة أجهزة أخرى تلعب دوراً هاما فى المعركة الانتخابية وهى مراكز تجميع الإحصاء عن اتجاهات الرأى العام وهى مراكز أشبه بمعهد جالوب الأمريكى المشهور . . .

فى كل يوم تصدر تلك المعاهد إحصائيات تكشف عن مراكز الأحزاب المختلفة والتوقعات المنتظرة . ونشر تلك التنبؤات يؤثر بدوره فى الرأى العام . . . ويحدد اتجاهاته إلى حد كبير ! .

المتشردون فى باريس . . . والانتخابات :

البرد شديد يجمد أطراف أصابع اليد برغم الجوانتى المبطن . . . والسماء سوداء كالحة بسبب تجمعات السحب الكثيفة التى حجبت نجوم السماء . . . ونحن جميعاً قد خرجنا لتونا من الاجتماع الانتخابى لمسيو سوانسون المرشح الديجولى الذى ينافس بييركوت صديق مصر المعروف ومرشح الحزب الشيوعى برغم أنه ليس عضواً به . . .

وانعطفنا من شارع كاتدرائية نوتردام . . . لتبرز أمامنا ضخمة هائلة الكاتدرائية الشهيرة بقبابها وأبراجها ، وفجأة لفح وجهى هواء ساخن يصعد من أسفل قدمى . . . فتوقفت أنظر إلى الأرض . . . وغمغم صديقى الفرنسى من بين شفتيه اللتين كاد يجمدهما البرد . . . هذه فتحة المترو . . .

ووقفت لحظة فوق الفتحة المسقوفة بقضبان الحديد . . .

وبرز من خلفى رجلان كانا من بين جمهور السائرين . . . وجدتهما يندفعان فجأة إلى الفتحة كأنما يخشيان أن أحتلها أنا وأصدقائى الثلاثة الذين توقفوا . . . ثم حدث تصرف غريب . . . جلس الرجلان فوق الفتحة وأخذ كل منهما يفك صرة كالجربندية وفرشا شيئاً كالمشمع . . . ثم دخل كل منهما فى جوال ونام منبطحاً على وجهه . . .

قال صديقى بهجت النادى دارس الطب المصرى . . . مغمغماً ... شحاذون ينامون على دفء فتحة المترو . . !

ثم أضاف موجهاً حديثه للرجلين : لا تناما على بطنكما . . . وإلا أصبتما بالسل ! . . . ولكن الرجلين لم يهتما بملاحظته الإنسانية أو الطبية ! . . .

وتبدد إحساسى بالبرد وتساءلت : شحاذون ومتشردون فى باريس ! .

لقد صادفت خلال أيامى الماضية فى باريس شحاذين . . . بعضهم

يشحذ على الطريقة المصرية . . . وبعضهم ممن نطلق عليهم « شحات أفرنجى » ! . . .

ولكن ما تصورت أن هؤلاء الشحاذين ليس لهم بيوت . . . اعتذرت لصديقنا الفرنسى ورجوته أن يذهب لينام . . . بعد أن عرفت منه أماكن تجمع المتشردين فى باريس . . .

والشحاذة فى باريس لها فنون . . . هناك الشحاذة الهادئة . . . حيث يجلس الشحاذ صامتاً وأمامه عصا بيضاء وبجانبه طبق أو قبعة ليضع المحسنون فيها بضعة سنتيمات .

أما النوع المحتال . . . فلهم طرق طريفة وذكية . . .

يقترب واحد منهم ومعه بضع ورقات كتشينة ويقول أتريد أن تكسب فرنكين . . . حسناً . . . ثم يلعب . . . وتلعب أنت . . . وتكسب أنت فى معظم الأحوال . . . فتفاجأ به يقول . . . ما دمت كسبت فرنكين أعطنى فرنكاً . . . فتعطيه فرنكاً وتنتظر أن تأخذ فرنكين فأنت الكسبان على أى حال ... ولكن المفاجأة الأخرى أن الرجل — وهو عادة شاب طويل الشعر يكتسب وجهه ملامح غير ودية على الإطلاق — يأخذ الفرنك . . . ولا يعطيك شيئاً ويقول شكراً فإنى فى حاجة إليه ! ! . . . وينصرف منتهزاً لحظة الذهول القصيرة ! .

وآخر يتقدم إليك بقلم حبر . . . مذهب ويقول مغمغماً . . . هذا بفرنكين فقط . . . أو فرنك . . . وتدفع أنت . . . فينحنى بقامته فى حركة مسرحية قائلا . . . شكراً . . . إنى أريد أن آكل . . . وينصرف دون أن يعطيك القلم . . .

بعد هذا ندخل فى موضوع المتشردين وليس كل متشرد عاطلا عن العمل . . . بل هناك الكثيرون منهم يعملون . . . ولكن لا يجدون بيوتاً لهم . . . وإنما يسكنون محطات المترو تحت الأرض . . .

وموضوع هؤلاء المتشردين . . . كان واحداً من المسائل الهامة التى

دارت حولها المعركة الانتخابية فى فرنسا .

فى الساعة الثانية نزلت محطة سان بول . . . فلم أستطع أن أمشى إلا على حرف رصيف المحطة. . . والناس قد ناموا كالسردين فى علبة هائلة جدرانها هى جدران محطة الترلمو الناصعة البياض والمليئة بإعلانات عن أحدث ثياب كريستان ديور وبدل « البالارد » الشهيرة والمطابخ الانسيابية الرائعة . . . رجال ونساء وأطفال . . . معظمهم نائم . . . والقليلون . . . قد تجمعوا يتحدثون فى صوت خافت وهم يدخلون الغلايين العتيقةوسجاير الحلواز. . .

جلست على الأرض . . . بعد أن ألقيت التحية على مجموعة جالسة . . فتفحصونى بنظرات غير ودية . . . ولما قلت لهم إنى صحفى مصرى . . . قال واحد منهم ضاحكاً فى خشونة . . .

— هل سئمت البيجال فجئت تتفرج علينا ؟ ! . . .

والبيجال هو حى الملاهى والكباريهات .

بعد لحظات . . . كسبت ثقة الجماعة ، ودار الحديث . . .

نحن نفاية باريس . . . لا أحد يهتم بنا . . . بل الكل يتاجرون باسمنا . . . ومنذ الجبهة الشعبية فى ٣٦ لم يفعل أحد شيئاً من أجلنا . . .

كان المتشرد العجوز يتكلم . . . بلا مبالاة . . . وأنا أحاول أن أنكشهم للحديث عن « جذور » مشكلتهم . وصديقى عادل رفعت يحل لى رموز لغتهم « العامية » ! . .

— هم يسلمون بوضعنا الحالى . . . ويستغلون ذلك الوضع . . . فى الصباح يحملنا كل حزب لافتات باسم مرشحيه . . . يربطها الواحد منا حول وسطه ويظل طول النهار يلف الشوارع والحارات والأزقة . . . وهى طريقة لم يستنكفوا أن يأخذوها من صغار التجار الذين اكتشفوا فينا جدراناً وألواحاً متحركة ! .

وفى محطة « ديروك » . . . التقيت بمجموعة أخرى . . . قالوا لى

بصراحة إن الحركة الفاشستية استأجرتهم يوم الجمعة . . « لتبويظ » اجتماع انتخابي كان سيحضره كوف دي مورفيل وزير خارجية ديجول فى انتخابات الإعادة . . . وباظ الاجتماع فعلا ولم يعقد بعد أن ضرب عدد من أنصار مورفيل . . .

واستخدام المتشردين وسيلة معروفة فى الانتخابات . . . ففى إحدى دوائر ضواحي مرسيليا ضرب بعض المتشردين المأجورين المرشح الشيوعى مارسيل شاتان وشجوا رأسه بعد أن حطموا زجاج سيارته . . .

على « دكة » طويلة فى محطة « سيجور » التقيت بنموذج غريب . . . متشرد وزوجته وابنهما .

والمتشرد جورمان فيسال . . . جاء من مقاطعة بريتانى إلى باريس . . . منذ أكثر من ثمانى سنوات تدور فى رأسه أحلام عن العمل فى المدينة الكبيرة تماماً كما تملأ الأحلام رأس فلاح البدارى عندنا . . .

وجاء ولم يعثر على عمل إلا كمنظف مداخن ... ولم يجد مسكناً . . . ولكنه تصور أنه سيجد . . . فبعث إلى زوجته فحضرت . . . وكانت حاملا . . .

وإذا كان بعض أصدقائه قد تحملوهما أسبوعاً أو أسبوعين فى غرفتهم الضيقة فإنهما اضطرا إلى الهجرة إلى رصيف محطات المترو بعد أن سمع عنه وعن الدفء المتوفر فيه . . .

واحتلا المكان منذ ذلك التاريخ . . وعند ما فاجأ المخاض زوجته . . . خرج هو من محطة المترو يصرخ فى الشارع ... حتى أدركه البوليس . . .

وبعد دقائق كانت عربة الإسعاف تقف أمام المحطة وينزل الرجل . . . ليحملوا الزوجة إلى إحدى المستشفيات . . . حيث وضعت طفلهما « تونى » وعادت الزوجة بعد عشرة أيام . . . ومعها طفلها إلى البيت . . . إلى الرصيف .

إن هناك أحياء هدمت وتهدم بكاملها فى باريس . . . وعمارات جديدة تبنى ولكن ذلك دون الكفاية بكثير . . .

ومن إحصائية فى منشور انتخابى للتجمع اليسارى . . . تبدو الأرقام الغريبة الآتية . . . أن ٥٣٪ من سكان باريس يسكنون شققاً مكونة من غرفة واحدة منهم ٤٣٪ يقيمون فى غرف ليس لها دورات مياه منفردة . . . بل مشتركة مع غرف أخرى و ٢٣٪ من سكان باريس يقيمون بشقق مكونة من ثلاث غرف . . . وستة فى المائة فقط من أهالى باريس الذين يزيدون عن أربعة ملايين يسكنون بيوتاً تزيد على ثلاث غرف . . .

هذا طبعاً دون حساب لمن لا بيوت لهم أصلا ! .

فى جولة لى فى الساعة الثالثة صباحاً عند جسر لاتورنيل . . . شاهدت عدداً من رجال البوليس يدفعون إلى سيارة البوليس عدداً من المتشردين كانوا ينامون فى السيارات المتراصة على رصيف السين الواطىء . . .

وفى الوقت نفسه كان هناك نوع آخر من الرجال يرتدون الملابس السوداء الأنيقة والمعاطف الثقيلة بصحبة نساء كأنهم من كوكب آخر ، ويخرج الجميع من باب مبنى من خمسة طوابق تقف أمامه سيارة البوليس . . . ويتجه الرجال والنساء إلى سياراتهم الأنيقة المتراصة على طول الرصيف . . . وتدور محركات السيارات وتتحرك فى سرعة وركابها يلقون بنظرات عابرة على المتشردين الذين يزج بهم فى سيارة البوليس وهم يصخبون ويلعنون .

وأشار صديقى إلى البناء . . . وقال :

هذا مطعم « تور دى أرجنت » — البرج الفضى — أفخم وأغلى مطعم فى باريس ، ثمن الوجبة الواحدة للفرد الواحد ثلاثمائة فرنك . . . وزجاجة النبيذ المعتقة منذ عام ١٨٠١ أربعمائة فرنك . . . ويستطيع الجالس فيه من أصحاب الملايين أن يطلب إضاءة برج إيفيل بالألوان الطبيعية لإمتاع عينيه للحظات فيضاء بالتليفون ، مقابل ألفى فرنك ! .

بعد معارك الصراع الطبقى الحامية فى الانتخابات الفرنسية .

يلزم أن ترتفع حرارة الإحساس بأوربا . . بشىء آخر غير ذلك النوع من المعارك ! . .

المونمارتر . . والحى اللاتينى . . والبنت فى باريس . .

و . . . و . . .

سهرة فى مونمارتر

* قلت لصديقتى الفرنسية .

هذا هو اليوم الواحد والعشرون لإقامتى فى باريس ولم أر شيئاً من معالمها أو خفاياها التى يتحدثون عنها . . . فإلى أين تذهبين بى الليلة ؟

قالت : نحن الآن فى الخامسة مساء و « اللوفر » مثلا أغلق أبوابه ... تعال إلى مونمارتر .

ركبنا المترو إلى محطة كليشى . . . وما خرجنا إلى سطح الأرض . . . حتى بهرت عينى الأضواء الساطعة من كل لون . . . هنا أضواء لا تمت إلى الوقار « الضوئى » فى الشانزليزيه مثلا . . . ولا عجب فى ذلك فنحن فى بداية الطريق الذى يقود إلى كل أصناف اللهو والخلاعة والمجون فى باريس . . . إلى البيجال الشهير .

واتجهنا إلى الميدان الأبيض . . . حيث انتصبت عالية شامخة « المولان روج » الشهيرة بمراوحها الضخمة كعملاق كبير . . . وقد علا تراب التاريخ جدرانها . . . هنا كان يرسم تولوز لوتريك لوحاته الشهيرة . . . ومرغ رجالات فرنسا وجوههم فى الوحل تحت أقدام أشهر غانيات فرنسا فى القرنين الماضيين ! .

وخلال شوارع طويلة ضيقة . . . أشبه بحارات حى جبل طولون فى القاهرة . . . كنا نصعد طريقاً عالياً إلى القمة . . . حيث يقع حى مونمارتر . . . واسمه فى الأصل « مون دى مارتير » أى قمة الشهداء . . .

وغريب طبعاً أن يسمى حى البوهيمية والانطلاق الكامل فى باريس بمثل ذلك الاسم الذى يوحى بالقداسة والتضحية . . . ولكنها باريس التى تجمع كل متناقضات المجتمع الأوربى ! .

ولماذا نذهب بعيداً وأمامنا الآن فى شارع ليبيك الضيق . . . كنيسة صغيرة فى مواجهتها بالضبط على بعد ثلاثة أو أربعة أمتار بالكاد علبة من علب الليل تتصاعد من داخلها موسيقى صاخبة وتفوح منها رائحة اللحم البشرى ممزوجاً بالعرق والخمر ودخان التبغ . وكأنما تقابل الكنيسة والملهى وتقاربهما . ليسهل على عباد الله تطبيق المثل القائل : « ساعة لقلبك وساعة لربك ! » . وإذا سرت قليلا فى نفس الشارع لوجدت المنزل رقم ٥٤ الذى كان يعيش فيه الرسام فان جوخ ! .

وصلنا الآن إلى ساحة « بلاس دى ترت » ، وكأننا وصلنا إلى سوق ، فالناس من كل جنسية ولون ، التفوا فى حلقات كحلقات الشراء والبيع حول مجموعات الفنانين الذين انكبوا على أوراق كبيرة مبسوطة على الأرض أو لوحات معلقة على حوامل . . . يرسمون .

بعضهم يرسم رسوماً واضحة . . . هذا وجه امرأة . . . وجه رجل . . . منزل قديم ، صور للميدان نفسه . . . صورة لبعض الواقفين من المتفرجين . . . والبعض الآخر يرسم صوراً غير مفهومة . . . لأمثالى من الناس العاديين على الأقل .

هذه أسلاك متشابكة يبرز وسطها شىء أشبه بالمفتاح الإنجليزى . . . وتلك ألوان صارخة مختلطة توحى بمذبحة لا ترى ضحاياها .

اشتريت أنا وماريلين علبتى بطاطس . . . وجلسنا على حافة حوض النافوره الكبير فى الميدان . . . نقزقز البطاطس ونشرب كوبين من النبيذ الأحمر اشتريناهما من بائع يبيع النبيذ كما يباع العرقسوس فى مصر .

وأخذت أرقب المنظر من حولى وقد بدأت أندمج فى الواقع الجديد ... بعد أن طار الصداع من رأسى . . .

الأولاد والبنات من حولى يتعانقون وهم وقوف . . . أو جالسون مثلنا . . . والسواح يساومون الرسامين على شراء اللوحات وهم يعانقون صديقاتهم ... ربما قال الواحد منهم ثلاثة فرنكات. . . ثم يقبل صديقته قبلة قصيرة أو طويلة . . . ليعود فيقول . . . لا ثلاثة فقط . . .

هاهوسائح أمريكى يطلب من الرسامة أن ترسمه وهو يقبل صديقته.. والرسامة تقول إنه يجب أن يدفع ثمن لوحتين لا لوحة واحدة ... والأمريكى يعارض . . . ثم يسلم أخيراً . . . ويستغرق فى قبلة طويلة متقطعة ليلتقط هو وصديقته أنفاسهما ! .

لو أن القديسين الذين استشهدوا على قمة ذلك الحى شاهدوا ما يجرى الآن فى تلك الساحة ربما ترددوا طويلا فى التضحية بأرواحهم إذا كان الذين استشهدوا من أجلهم منذ ستة عشر قرناً قد تطوروا إلى تلك الحال ! !

فى ماء هذه النافورة حيث تجرى مشاهد الرسم والبوهيمية . . . غسل القديس سان دينيس رأسه المخضب بالدماء وانصرف إلى حال سبيله أكثر من ستة كيلومترات إلى ما يسمى اليوم بشارع سان دينيس ! .

والقصة من أولها . . . أنه فى أعلى بقعة من ذلك الحى . . . منذ أكثر من ١٦٠٠ عام وعلى وجه التحديد فى عام ٢٧٢ ميلادية . . . جرت مذبحة دينية . . . قطعت فيها رقاب ثلاثة من القسس المسيحيين كان حماسهم للدين الجديد يقض مضجع الحكام الرومانيين .

والثلاثة هم: سان دينيس وروستيك وألوى تير . . . سار بهم موكب

الموت فى شوارع سان مارتان وشارع مونمارتر . . . وكان سلوكهم هادئاً . . . وواجهوا الموت بشجاعة استفزت الجلاد حتى قطع رقابهم بسرعة قبل أن تستدر شجاعتهم عطف الجماهير .

ومن هذا الحى . . . اندلعت الشرارة الأولى لكوميون باريس . . . أول تجربة اشتراكية فى التاريخ .

وفى عام ١٨٧١ كان البروسيون يحاصرون باريس . . . وكانت هناك تشكيلات من الحرس الوطنى للدفاع عن المدينة . . . ونقل الحرس الوطنى مائة وسبعين مدفعاً على قمة الحى بجانب كنيسة الساكركير خوفاً من أن يستولى عليها البروسيون عند اقتحامهم باريس . . . ولكى يستطيعوا الدفاع عن الحى بها . . . وهى فى مكانها العالى . . .

وفى ١٨ مارس ١٨٧١ تآمر الجنرال لوكونت على إنزالها . . . وعلمت الجماهير ؛ فاندفعت من البيوت والمصانع الصغيرة والحوانيت تهاجم قيادة الحرس الوطنى وفتكت الجماهير ببعض قادته المتآمرين . . . واستولت على بطاريات المدفعية . . . وصوبتها فى اتجاه البروسيين .

وكان ذلك بداية استيلاء عمال باريس على أجهزة السلطة ثم على الحكم فى باريس كلها .

الحى البوهيمى إذن له تاريخ عريض ... وقد اجتذب تاريخ المكان وموقعه الطبيعى كأعلى بقعة فى باريس الفنانين والشعراء والأدباء يعيشون فيه فى انطلاق كامل ... خلده شاربنتييه فى قصة موسيقية خالدة . . . وتضاعف سكان الحى . . . فقفز عددهم من ألفى نسمة عام ١٨١٠ إلى أربعين ألفاً عام ١٨٧٧ ثم إلى أكثر من ربع مليون فى الوقت الحالى .

شدتنى صديقتى من يدى بعد أن انتهت من سردها التاريخى للحى . . . وقالت دعنا نتمشى .

ها هو متحف اليستوريال . . . متحف للشمع يصور مشاهد

مونمارتر القديمة كلها من أيام هنرى الرابع .

ها هو متحف مونمارتر نفسه . . . لوحات فنية تمثل الحى القديم .

ونقف الآن أمام كباريه يحمل اسماً غريباً . . . كباريه القتلة . حظنا سيئ . . . إذ لم نجد فيه بيكاسو الذى تعود أن يسهر فيه مع شلة من كبار كتاب فرنسا مثل ماك أورلان وفرانسيس كاركو ودورجيه .

والمولان دى جاليت . . . مبنى تاريخى ليس له شهرة المولان روج .

وفى الطريق نلتقى بمتناقضات . . . هنا ناس متدينون أشبه بالحجاج . . . جاءوا من كل مكان من إيطاليا وأسبانيا وأمريكا . . . ليحجوا إلى قمة الشهداء . . . ويقفوا فى ابتهال وانبهار أمام نافورة بلاسى دى ترت . . . وهم يصدقون تماماً أسطورة غسل القديس المذبوح لرأسه فى مياهها ! .

وهنا أيضاً . . . طلاب متعة وسهر فى الحانات الليلية التى تراصت جنباً إلى جنب كما نراها فى أفلام السينما .

وجذبنى صوت الموسيقى المنبعثة من أحد تلك المحال التى تبدو قديمة من الخارج . . . فدخلنا لتصطدم عيوننا بزحام شديدة .

سحبتنى مارلين من يدى ودخلنا . . .

وفى الجو المعبق بالدخان والموسيقى ورائحة النبيذ وأنواع الخمور المختلفة والرقص الحار المحموم . . . فوجئت أن صديقتى تحولت إلى شخص آخر .

كفت عن الحديث التاريخى الجاد . . . وقالت لى وهى تبتسم ابتسامة ضاحكة .

— انس الآن أنك صحفى . . . وانس السياسة والشهداء وكوميون باريس . . . وانس الأسابيع الثلاثة الماضية .

وعش لحظات . . . هنا عمر الخيام هو قائدنا الأيدلوجى وليس غيره . وانطلقت تردد أشعاراً لعمر الخيام باللغة الفرنسية .

وقالت لى وأنا ما أزال فى دهشتى ، مبهوراً ، فتلك تجربتى الأولى فى حياة باريس الليلية .

— لماذا لا تعنون فى مدارسكم بتدريس وتحفيظ الطلبة أشعار عمر الخيام . . . إنه أول وجودى فى التاريخ ! .

* ولكنك لست وجودية فيما أعلم . . .

— الآن يجب أن تكون وجودياً . . . وفى هذا المكان ! .

شققنا طريقنا وسط أجساد الراقصين والراقصات بصعوبة بالغة . . . حتى وجدنا ركناً فى القاعة انحشرنا فيه بين مجموعات من الجالسين والجالسات يتعانقون ويقبلون بعضهم بعضاً فى شراهة ونهم . . . والبعض قبلات رقيعة . . . ولكن لا أحد يقبل قبلات مهيبة أو يحمر وجهه خجلا ! .

الجميع التصقوا على الأرائك الطويلة . . . والبعض الآخر ركع على الأرض يدفن رأسه فى حجر صديقته . . . وكثيرون يتبادلون التعليقات مع بعضهم البعض دون سابق معرفة . . . ويضحكون ويصخبون ويتهامسون ويتناجون .

المكان يبدو رخيص التكاليف . . . ولكنى دهشت عند ما طلب منا الجرسون أربعين فرنكاً أى أربعة جنيهات ثمناً لكأسين من الويسكى فى محل صغير كهذا . . . ولاحظت صديقتى دهشتى . . . فقالت هنا محل يقصده كل السياح . . . فرصة ذهبية كى يدفعوا وهم يحبون مثل ذلك الجو .

وثمن كأس الويسكى فى أى محل آخر فى باريس لا يزيد على أربعة فرنكات أى أربعين قرشاً ! .

الرقص « للركب » . . . والموسيقى متنوعة . . . لا تسكت لحظة حتى تبدأ لحناً مغايرا . . قالت مارلين وهى تتمايل على أنغام الموسيقى :

* هيا بنا نرقص . . .

قلت : لا أحب الرقص . . . وأفضل أن أتفرج .

قالت : ولكن لى رغبة فى الرقص . . .

قلت : يمكنك أن ترقصى مع أى واحد ! .

قالت : أنت رجل شرقى . . . ألا تغار ! ؟ .

قلت : نحن نغار فى الشرق على من نحب ! .

اربد وجهها قليلا . . . وأدركت على الفور أنى جرحتها . . . فقلت وقد استدرجنى الجو الغريب :

— هيا بنا نرقص . . .

هذه ليست ماريلين التى أعرفها منذ أسبوعين . . . والتى كانت تناقش نشأة القومية فى غينيا وغانا بجدية غريبة فى الحلقة الدراسية فى كلية العلوم السياسية منذ ساعات ! .

هكذا الفرنسيون بل والأوربيون جميعاً . . . يعملون وينتجون ويكدحون طول النهار فى جدية ... وفى الليل يمرحون بلا حدود للانطلاق .

دخلت مجموعة من الشبان الأسبان . . . أخذوا يشيعون المرح ويرقصون ويدقون على المائدة . . . ويلقون نكاتاً إنجليزية وفرنسية بلغة ركيكة . . . والناس يضحكون ويتبادلون معهم الحديث .

لقد أوجد المرح نوعاً من الإخاء الإنسانى ،

وجاءهم الجرسون فبدا كما لو كان قد داهمتهم « كبسة » . . . إذ الأسعار مرتفعة . . . فقاموا وخرجوا من الحانة . . . ووقفوا خارجها أمام باب زجاجى كبير يطل على قاعة الرقص . يطلون برءوسهم منه . . . والناس تضحك من منظرهم وخوفهم من الدخول حتى لا يضطروا للدفع : هنا حتى التفاوت الطبقى يتخذ طابعاً مرحاً ضاحكاً ! ! .

والمغنى يرفع عقيرته بالغناء . . . غناء مبتذل جداً ! .

والناس مع ذلك يتجاوبون ويضحكون ويتمايلون كأنهم فى هيستريا ... هنا مقاييس وقيم مختلفة تماماً عما نفكر نحن ! .

فى الثالثة صباحاً . . . قال المطرب بعد أن جمع حصيلة وافرة من الفرنكات هو والفرقة الموسيقية .

أيها الأصدقاء والصديقات لا نقول وداعاً . . . بل إلى مساء غد . . .

ويبدأ الناس يجمعون أجسادهم المتهالكة . والمتعبة من الرقص والمرح . . . ويلفون أنفسهم بالمعاطف والكوفيات بعد أن سبحت الأجساد فى العرق استعداداً للفحات البرد فى الخارج .

وعلى الباب تجمعت عشرات التاكسيات لالتقاط الزبائن .

ولفحنى الهواء البارد . . . فأطار من رأسى كل تأثير الجو البوهيمى . . . وأفقت كمن كان فى حلم .

اقترحت على مارلين أن نسير فى الشوارع .

واستسلمت ليدى وأنا أسحبها نتسكع فى شوارع باريس النائمة . . . ونحن نتحدث حديثاً لذيذاً يتسلل إلى نفوسنا . كما تتسلل خيوط الفجر لتبدد جيوش الظلام ، ونحن واقفان على ضفاف السين نسترجع ذكريات حى جبل الشهداء أمام كاتدرائية نوتردام وقد انعكست ظلالها القاتمة على صفحة مياه النهر التى تجرى منذ الأزل . . . وستظل تجرى ما دامت الحياة تمضى .

وقد أوشكت المدينة الكبيرة أن تخرج من بيوتها ملايين العمال والعاملات . . . والموظفين والموظفات . . . وغيرهم ممن استمتعوا بالمرح فى الليل . . . ليعودوا أكثر نشاطاً إلى العمل والبناء . . . وتلك هى المعادلة الصعبة فى أوربا ؟ ! .



على ضفاف السين

الجامعة ، والسيدة العارية

والبطانية الصوف !

في مكتبة ماسبيرو بالحي اللاتيني . . قال لي شارلي بتلهيم أشهر أساتذة الاقتصاد في فرنسا . .
– ألا تنوى أن تلتحق بالقسم الدراسي معي في السربون ؟
قلت : هذا شرف عظيم ولكني لا أنوى الإقامة في فرنسا .
ودار حديث بيننا بعد ذلك عن القسم وكيف يمكن الالتحاق به . .
هو قسم غير مألوف لنا في الجامعات المصرية . . وإن كان كثير من الكتاب طالبوا بتطبيق مثيله فيها ..

فالقسم الذي يشرف عليه البروفسور بتلهيم في جامعة باريس قسم يحصل منه « الخريج » على درجة الدكتوراه . . . ومع ذلك فهو قسم حر يدخله أي واحد سواء يحمل مؤهلا جامعياً أو لا يحمل . . . بل حتى شهادة الدراسة الثانوية غير ضرورية . . .

ومدة الدراسة في هذا القسم الاقتصادي - الذي يشبه كلية اقتصاد . . . لا حدود لها . . . قد يظل الدارس يدرس خمس أو ست أو عشر سنوات فيحصل في النهاية على درجة الدكتوراه .

ولا يدفع الطالب رسوماً للدخول أو الالتحاق وإنما فقط يشترى الكتب. والامتحانات على شكل أبحاث في مواضيع يقدمها الدارس للأستاذ المشرف .

والقسم الذي يشرف عليه بتلهيم يوجد مثيل له في فروع أخرى من العلوم كالطبيعة والكيمياء والهندسة . . .

ولقد أنشئوا في جامعات فرنسا مثل هذه الأقسام « المرنة » لتحقيق هدفين :

الاستفادة بعلم وثقافة بعض كبار المثقفين الفرنسيين الذين لا يحملون درجات علمية مثل دكتوراه الدولة التى تؤهلهم ليكونوا أساتذة بالجامعات .

ومن ناحية أخرى تمكين من يريد الاستزادة من العلم والتخصص دون أن يحصلوا على المؤهلات الجامعية المعروفة من مواصلة دراستهم . . .

وقد يبدو من هذه التسهيلات أن مثل تلك الأقسام الجامعية تضم أعداداً غفيرة من الطلاب . . . ولكن هذا غير صحيح . . . فإن عدد الطلبة الذين يدرسون فى قسم شارل بتلهيم مثلا لا يزيدون عن ثلاثمائة طالب . . .

ونوعية هؤلاء الطلاب مختلفة عن نوعية طلاب الكليات الجامعة الأخرى . . . فمعظمهم متقدم فى السن . . . ويعمل موظفاً . . . وبعضهم من اللاجئين السياسيين . . . والبعض الآخر من صعاليك المثقفين ! .

وهم فى الغالب يرتبطون فكرياً بالأستاذ الذى يشرف على دراستهم .

وفى الحقيقة أن معظم الطلاب فى الجامعات الفرنسية يرتبطون فكرياً بأساتذتهم . . . على عكس ما يحدث فى الجامعات المصرية . . .

والسبب بسيط . . . إن الأستاذ عادة يشرف على مجموعة قليلة من الطلاب تتراوح ما بين عشرين وأربعين طالباً . . . يلتقى بهم دائماً . . . ويزورونه فى بيته . . . ويشركهم فى أبحاثه ومقالاته كما يشاركهم فى أبحاثهم . . .

على ذلك فإن تأثر الطالب بأستاذه عميق . . . وتجد الطالب يتحدث عن أستاذه بتقدير عظيم يذكرنا فى مصر هنا بمكانة الأستاذ الجامعى قبل وبعد الحرب العالمية الثانية بقليل ! .

وليس ثمة قيود على الأستاذ الجامعى فى تدريس المادة التى يقوم بتدريسها . . . ومن ثم تجد أساتذة شيوعيين . . . وآخرين وجوديين يمينيين واشتراكيين ديمقراطيين ، وفوضويين . . . وصهيونيين . . . ومتأمركين أو ضالعين مباشرة مع المخابرات الأمريكية ! .

والحديث عن استقلال الجامعات فى أوربا . . . حديث مبالغ فيه إلى حد كبير . . .

ومعروف كيف تؤثر الاحتكارات الكبرى فى الجامعات مباشرة عن طريق التبرعات والمعونات الضخمة . . . وفى باريس توجد كلية السنترال المعروفة . وهى كلية هندسية — وينفق عليها « داسو » صاحب مصانع طائرات الميراج المشهورة التى مون بها إسرائيل طوال العشرين عاما الماضية ويلتحق بهذه الكلية أكثر من ٦٠٠ طالب إسرائيلى بمنحة من داسو شخصياً . . .

وفى جامعة باريس يوجد معهد باسم « معهد الأبحاث القومى للعلوم السياسية ، هذا المعهد تموله مؤسسة فورد ويعمل به عدد من الأساتذة الأمريكان المرتبطين مباشرة مع المخابرات الأمريكية .

وهذه حقائق غير خافية . . . بل إنه عند ما كنت فى باريس نشرت جريدة فرانس سوار (وهى جريدة محافظة) أن المخابرات الأمريكية أوصت بأن يرافق أستاذ أفريقى يعمل فى المعهد وأستاذ فرنسى آخر ابن ميكويان الزعيم السوفييتى الذى كان فى زيارة لباريس فى تلك الفترة ليساعداه على استطلاع التقدم الاقتصادى فى فرنسا ! ! .

* * *

من يدخل الجامعة فى فرنسا ؟

للوهلة الأولى يبدو أن كل من ينهى دراسته الثانوية يمكنه دخول الجامعة . . . دون التقيد بمجموع معين وهذا صحيح . . . ولكن إنهاء الدراسة الثانوية تعترضه تعقيدات كثيرة . . . تهون بجانبها تعقيدات نظام التعليم فى مصر منذ أخذنا بنصائح مدرسة ديوى والقبانى ! .

والنتيجة أنه لا يتخرج من المدارس الثانوية أكثر من ١٢٪ ممن بدءوا التعليم فى المرحلة الابتدائية . . . ولا يدخل هؤلاء جميعاً الجامعات

فإن معظم الشبان الأوربيين بعد أن يصلوا إلى سن السادسة أو السابعة عشرة يفضلون العمل إزاء إغراء الأجور العالية نسبيا والاستقلال الاقتصادى والمعنوى عن الأسرة . . .

وربما كان الرقم التالى ذا دلالة عمن يدخل الجامعات فى فرنسا . أن ٣٪ فقط من طلبة الجامعات هناك من أولاد العمال . وللعلم أن عدد العمال الفرنسيين يزيد على عشرة ملايين عامل . . . وهذا الرقم يشمل العمال المنتظمين فى نقابات فقط ! .

وبرغم أن دخول الجامعات لايتعين بمجموع ، إلا أن هناك كليات معينة لا يدخلها إلا المتفوقون جداً . . . مثل كلية البولتكنيك وهى أشهر كلية هندسية فى فرنسا ، أنشئت من عهد نابليون ولا يقبل بها إلا من لم يتجاوزوا سن العشرين . ويعتبر خريجو تلك الكلية هم عباقرة فرنسا فى الأبحاث الرياضية والهندسية . . .

فى ذات ليلة عشت مع أرستقراطية باريس كلها . . . أولاد وبنات أغنى الأغنياء فيها . . . فى حفل راقص بكلية الحقوق . . . فكما كانت كلية الحقوق فى مصر منذ أربعين عاماً أو أقل قليلا . . . أقصر الطرق إلى المناصب الكبيرة حتى رئاسة الوزراء ، كذلك كلية الحقوق فى باريس . . . هى كلية أبناء الذوات . . . الذين يتوزعون بعد ذلك على السلك الدبلوماسى ومناصب الدولة . . .

ولكن أبناء الأرستقراطية الفرنسية لا يعيشون فى قمقم أو قوقعة . . . لذلك لم يكن عجيباً أنى اشتبكت تلك الليلة فى الحفل الراقص بمناقشات عديدة مع طلبة وطالبات شيوعيين واشتراكيين وفوضويين ووجوديين ورجعيين وصهيونيين . . . و . . . وكلهم من أبناء الذوات الفرنسيين ! . .

* * *

وجامعة باريس لا يضمها مكان واحد حوله سور مثلا . . . وإنما هى مبان متناثرة معظمها فى الحى اللاتينى . . . ولا يميزها عما يجانبها

أو حولها من مبان سوى قدمها . . . فهى مبانٍ قديمة . . . ربما « ركبت » عليها مبان جديدة إضافية . . .

وقد أنشئت الجامعة فى باريس أول مرة فى عهد شارلمان . . . ولكنها كانت أشبه بمدارس . . . حتى جاء البابا إينوس الثالث فأعطى طلبة وأساتذة تلك المدارس حق وضع لائحة لتنظيم الدراسة فى مدارسهم .

وقال لى البروفسور رودنسو الأستاذ الفرنسى صديق العرب وعدو الصهيونية اللدود برغم أنه يهودى . . . وهو يحدثنى عن الفرق بين الجامعة والمدرسة . . .

— إن تلك كانت أول مره يستقل معهد أو مدرسة فى وضع نظام . . . ومن هنا جاءت فكرة استقلال الجامعة التى أصبحت تقليداً فى كل العالم . . .

وأيام البابا إينوس الثالث كان عدد طلبة جامعة باريس خمسة عشر ألف طالب . . . وكان تقليداً أن الطلبة الفقراء يشتغلون خدماً لدى الطلبة الأغنياء . . . كى يستطيعوا مواصلة تعليمهم ! .

وما زال على جدران كلية السربون الأصلية لوحات لطلبة يسحبون جياد زملائهم الطلبة إلى الاسطبلات القريبة من الكلية ! .

وهناك خطأ شائع . . . أن يقال جامعة السربون . . . إنها كلية السربون . . . وقد أنشأها روبير دى سوربون عام ١٢٥٣ بمساعدة بعض النبلاء . . . وكانت فى الأصل كلية لتدريس العلوم الدينية وبدأت بستين طالباً فقط . . . ويرجع اسم السوربون إلى القرية التى انحدر منها روبرت وهى قرية تقع فى مقاطعة الأردين بفرنسا . . .

ويحكى التاريخ أيضاً أن الدراسة فى كليات الجامعة كانت باللغة اللاتينية حتى أواخر القرن الثامن عشر . . . حتى صدر قرار فى ١٧٨٩ ، أى عام الثورة الفرنسية باستعمال اللغة الفرنسية فى الجامعات — ومن هنا جاء اسم حى جامعة باريس «الحى اللاتينى» . . .

ولم يعد ذلك الاسم الآن يوحى بالجامعة والعلم . . . بقدر ما يوحى بالبوهيمية والشباب والمرح والرومانسية والغرابة والشذوذ !

فى الشارعين الرئيسيين سان ميشل وسان جرمان . . . تتراص أكبر مجموعة من المقاهى الزجاجية الجميلة . . . التى تستعرض فيها فتيات العالم جميعاً (ومعظمهن طالبات وسائحات ، سيقانهن الرائعة . . . وفساتينهن القصيرة والغريبة أيضاً . . .

والسير فى الشارعين المشهورين فى حد ذاته متعة لا تعادلها متعة . . . وفيه انطلاق لا حدود له . . . سواء فى طريقة المشى . . . حتى لتستطيع أن تسير على يديك أو على أربع دون أن تثير اندهاش أو احتجاج أحد ! . .

وفى الليل يزدحم الطلبة والسياح حول علب الليل والكباريهات التى يغص بها الحى . . . أو دور السينما التى تقدم تخفيضاً خاصاً للطلبة ؛ وليس ثمة بوليس فى الشوارع يحافظ على الأمن فى ذلك « المولد » . . . فلا أحد يعترض على تصرف أحد مهما بدا من غرابة أو شذوذ . . .

فى مرة كنت أسير فى الشارع . . . فشاهدت امرأة جميلة تتدثر ببطانية من الصوف الخشن أشبه « بالحرام » الذى يتلفع به أهل قريتى «سنتريس» . . . وفجأة سقط الحرام من فوق السيدة . . . فإذا بها عارية تماماً كما ولدتها أمها . . . فمالت على الأرض ببساطة والتقطته والتفعت به مرة أخرى . . . وصفر بعض الشبان إعجاباً بجسد السيدة العارى . . . وحدق البعض الآخر . . . ثم انصرف كل واحد . . . فى سبيله . . . وبعد قليل . . . كررت السيدة المنظر مرة أخرى . . . ثم ثالثة ورابعة . . . وفى كل مرة تضحك لمن يصفر . . . وتمضى فى الطريق . . . لتكرر نفس الحكاية . . . وهكذا . . . وليس هذا هو المثل الوحيد للشذوذ والإغراب فى باريس والحى اللاتينى بالذات . . .

* * *

أما المدينة الجامعية . . . فى باريس . . . فهناك مدينتان رئيسيتان . . .

إحداهما فى سان أنطوان . . . ضاحية من ضواحى باريس . . . والأخرى المدينة الجامعية الأساسية ويسمونها بالمدينة الدولية نسبة إلى أن كل دولة أقامت بيتاً لأبنائها الطلاب يعيشون فيه . . .

وليس لمصر بيت فى تلك المدينة برغم أن هناك أكثر من ٤٠٠ طالب مصرى يتلقون العلم فى باريس . . . وهناك أساتذة مصريون يدرسون فى الجامعة هناك ويرفعون اسم مصر لمستواهم الرفيع مثل الدكاترة: عبد الرحمن بدوى ، وأحمد القشيرى ، ولطفى فام ، وأنور عبد الملك . . . بل إن كتاباً للدكتور عبد العظيم أنيس أستاذ الإحصاء فى جامعة عين شمس يدرس بجامعة باريس بعد أن ترجمه البروفسور « ديجيه » تحت اسم نظرية الاحتمالات . . .

والحياة فى المدينة الجامعية فى باريس . . . يلفت النظر فيها ما يلفت نظرك فى الجامعة . . . لا توجد سلطة من أى نوع تقهر الطلاب أو تقيد حركتهم . . . ففى الجامعة لا يوجد حرس جامعى . . . يثير مع الطلبة مشاكل كل يوم حول مجلاتهم أو محاضراتهم أو نشاطهم . . .

هذا برغم أن طلبة الجامعة فى فرنسا يقومون بنشاط سياسى دائم ومثير للاستفزاز بالنسبة للدولة . . . بل إن البوليس كثيراً ما يتصدى لمظاهراتهم ويضربهم بالرصاص ويقتلهم ويجرحهم . . .

ومع ذلك فلا أحد يفكر قط فى أن يضع شرطياً بين الطلبة والأساتذة لا فى الجامعة ولا فى المدينة الجامعية . . .

ولا يوجد موظفون إداريون فى المدينة الجامعية يسيطرون على الطلاب أو يتدخلون فى شئونهم . . . الموظف الإدارى مهمته فقط معرفة مكان الطالب وتسليمه البريد وإرشاد زواره إليه وتنظيم « نوباطشية » عمال النظافة . . .

وبعد ذلك ليس له حق التدخل فى أى شىء فى حياة الطلبة وكيفية تنظيمهم لحياتهم .. بل إن الطلبة ينظمون حياتهم تنظيماً ديمقراطيا

مطلقاًأوأقول مطلقاً بمعنى الكلمة ..

قضيت أسبوعاً كاملا فى المدينة الدولية . . . فى بيت الترويج مع صديقى حسام عيسى الذى يحضر لدكتوراه الدولة . . . لم يقل لى أحد قط من أنت ومن أين ولماذا تقيم معنا . . . إلخ . . .

والطلبة والطالبات يستقبلون زوارهم فى أى لحظة من الليل أو النهار ويعيش الطلبة والطالبات فى بيت واحد . . . وفى غرف متجاورة . . . اللهم إلا فى بعض البيوت مثل البيت الأمريكى واللبنانى والجزائرى حيث الطلبة فى بعض الطوابق والبنات فى طوابق آخرى فى نفس المبنى . . . وليس لأحد أن يحاسب طالباً أو طالبة على علاقته أو علاقتها بزميله أو بزميلتها أو بغيرهما . . . وربما بدا ذلك للقارئ المصرى . . . أن نتيجته الحتمية هو الانحلال الكامل . . . فالصبيان يبيتون فى غرف البنات وما يتبع ذلك ، والعكس بالعكس وهكذا ! . . .

سأخيب ظن هذه الخيالات جميعاً . . . فمن مشاهداتى خلال إقامتى فى المدينة الجامعية وترددى عليها وعلاقتى بكثير من الطلبة والطالبات أستطيع أن أقول إن مستوى ما نسميه بالانحلال فى جامعة باريس لا يزيد عما نسميه بمستوى الانحلال فى جامعة القاهرة . . .

ونعنى بالانحلال هو تعدد العلاقات « العاطفية » للفتى أو الفتاة . . مثل تلك الفتاة الجامعية المصرية التى تعلق طالباً غنياً كعريس وتصادق فى الوقت نفسه فتى آخر أى فتى يرضى عواطفها .

وأيضاً الغرق فى المتع الحسية وترك العمل والواجبات الأساسية كالدراسة مثلا .

هذه الظاهرة قليلة فى جامعة باريس وأكرر باريس . . .

ومعظم الطلبة والطالبات مرتبطون بعلاقات عاطفية أحادية . . . وهم يميزون بين العاطفة والعمل . . . للعاطفة وقتها فى الإجازة الأسبوعية والعمل طول الأسبوع . . .

وقد تدهش إذا علمت أن ٢٤٪ من طلبة وطالبات جامعة باريس ملتحقون بكليتين اثنتين فى وقت واحد . . .

وأن ٣٧٪ طلبة وطالبات يعملون بجانب كونهم طلبة . . . ابتداء من غسل الصحون وبيع السندوتشات والصحف إلى حمل طرود الخضار واللحم فى حى « الهال » . . . سوق باريس الكبير . . . أو « معدة باريس» كما يطلقون عليه . . .

ليس هذا فحسب بل ، إن طلبة وطالبات جامعة باريس . . . يقومون بنشاط سياسى كبير . . . فهم يشتركون فى مقاومة حرب فيتنام كل يوم تقريباً . . . وأيام العدوان على مصر . . . اتخذ اتحاد الطلبة الوطنى هناك قرارات مع العرب بعد مؤتمرات فرعية طويلة . . . وما من مدينة جامعية أو كلية تخلو فى أى يوم من ندوة أو محاضرة . . . سياسية أو ثقافية . . .

وفى نفس الوقت ما من أسبوع يمر دون حفل راقص صاخب . . . يسيل فيه النبيذ أنهاراً . . . ويتهاوى الشبان والشابات على ركبهم تعباً من الرقص والقبلات معا . . . ويصخبون ويبرطعون بلا حدود ولا قيود . . .

وفى الصباح . . . تدق أجراس المدرجات . . . فتمتلىء عن آخرها . . وتمتلىء قاعات المكتبات . . . ويبدأ يوم جامعى نشيط . . . وتلتف كل مجموعة من الطلبة حول أستاذها يتبادلون الرأى والمناقشة فى جدية . . . لاتصدقها عند ما تطوف بمخيلتك ذكريات سهرة الأمس الصاخبة . . .

كيف هذا ؟ . . . تلك مرة أخرى هى المعادلة الصعبة فى أوربا ؟ !

فتاة باريس . .

على بعد ذراع واحد منى . . . كان فتى وسيم يضم بين ذراعيه فتاتين أكثر وسامة منه . . . يحيط كلا منهما بذراع . . . يقبل واحدة فى شفتيها قبلة طويلة . . . ثم يستدير ليقبل الأخرى فى خدها وهو يعبث بشعرها ! .

ولست أنا الوحيد فى المكان . . . فمن حولى عشرات الناس مثلا متلاصقون . . . جالسون وواقفون . . . ولكنهم ساكنون سكونهم التقليدى . . منصرفون إلى قراءة الصحف أو كتب فى أيديهم . . . كلهم عائدون من عملهم بعد ظهر ذلك اليوم .

وأنا واقف تقذف بى حركات المترو وهو ينهب القضبان تحت الأرض فى حركات سريعة مذبذبة كبندول الساعة إلى اليمين واليسار . . .

وكانت تلك أول مرة أرى فيها ذلك المنظر الغرامى عن قرب . . . فقد كنت فى اليوم الثالث لإقامتى فى باريس .

وحاولت أن أتشاغل وأتظاهر باللامبالاة . . . كما لا يبالى الناس من حولى بالمنظر المثير .

أشعلت سيجارة . . . وما كدت أنفث « النفس » الأول حتى فوجئت بعشرات الأيدى تمتد إلى فى سرعة ولكن فى أدب شديد تربت على كتفى أو تمتد إلى بأصابع كأصابع الاتهام . . . لأطفىء السيجارة . . . فالتدخين ممنوع كما تقول لافتة عريضة لم أرها فى المترو .

وأطفأت السيجارة وأنا أغمغم بعبارات الاعتذار والخجل . . . ثم قفز إلى رأسى تساؤل يتساءله كل وافد جديد على أوربا ولم يتعود بعد حياتهم . . ولم يفهم تقاليدهم .

أيهتز هؤلاء الناس لمنظر سيجارة مشتعلة فى المترو . . . ولا يهتمون قط بذلك الذى تطرقع قبلاته للفتاتين وهو يهصرهما هصراً بين ذراعيه على مرأى من ألف عين وعينين !؟

وبمرور الأيام والأسابيع . . . بدأت أفهم وأتعود ! .

بدأت أفهم أنها أسطورة تلك التى يرددها أو يتصورها الكثيرون هنا من أن الفتاة الفرنسية والأوربية بشكل عام . . . عبارة عن قطعة من الجنس تسير على قدمين تقول ألا من يشتهى أو يشترى ؟ ! .

ويكفى أن تشير لها بالأصابع حتى تتهاوى تحت قدميك تعبّ من خمر اللذة عبًّا لا ترتوى منه خصوصاً إذا كانت الخمر شرقية تمتد إلى إله التناسل عند قدماء المصريين وتقاليد هارون الرشيد وألف ليلة وليلة ! .

يمكن القول أن هذه أوهام مراهقة وأحلام شباب مجتمع انفصالى محروم . . . ومسئول عنه إلى حد ما ذلك النوع من الكتاب المولع بالتعميم . . . إذ ربما التقى بنماذج من الفتيات الفرنسيات منحلات فعلا . . . أو بغايا فى شوارع البيجال وسان دينيس . . . فيصدر حكماً بأن كل بنات فرنسا هكذا .

* * *

الحقيقة أن الفتاة الفرنسية صعبة المنال . . . أو على الأصح أكثر بنات أوربا تحفظاً .

وهو تحفظ ليس نابعاً من خجل أو تقاليد موروثة . . . وإنما هو نابع من غرور . . . وإحساس قوى بالذات يملأ الشعب الفرنسى كله . . . إذ يعتبر نفسه صانع الحضارة الأوربية .

المرأة الفرنسية تعرف أنها محط أنظار العالم . . . ولها شهرة دولية فى الجمال والأناقة . . . وصناعة ذلك الجمال . . . وصناعة الحب أيضاً ! . . .

وتعرف أن كل رجل وخاصة الأجنبى يريدها . . . ومن ثم فهى مطلوبة وعليها إقبال شديد يأتيها الناس من أمريكا وإنجلترا وكل أنحاء أوربا غير الشرقين الأقصى والأدنى أيضاً .

الرجل يحتاج إلى مجهود أكبر للظفر بصداقة الفتاة الفرنسية أكثر مما يبذله عادة مع فتاة إنجليزية أو ألمانية .

وربما كانت الفتاة الفرنسية أكثر فتيات أوربا الغربية ثقافة واطلاعاً . . . وهذا انعكاس لكون الحركة الثقافية والفكرية فى فرنسا نفسها أكثر حيوية وانطلاقاً واتساعاً من أى مكان آخر فى أوربا .

وهذه الثقافة للفتاة الفرنسية . . . تشكل جزءاً من شخصيتها . . . وتزيد من جاذبيتها المغنطيسية . . . وتشعر من يظفر بقلبها بالتفوق والقدرة . . . فليس شىء أجمل من قلب المرأة الجميلة والمثقفة معا ! كبطل قصة بداية ونهاية لنجيب محفوظ الذى أذهله جمال بنت الباشا الجميلة فتمتم قائلا : « من يركبها يركب طبقة ! ! » .

والفتاة الفرنسية جميلة ورشيقة وأنيقة . . . ولكن الحقيقة من مشاهدتى فى ثمانية بلاد أوربية أستطيع أن أقول إن عرش الجمال والأناقة انتقل من باريس إلى لندن . . . وقالوا لى فى لندن : اذهب إلى السويد . . .

وإنك لتمشى فى شوارع لندن . . . وتحاول عمل إحصائية لعدد الفتيات القبيحات فى الشارع . . . ربما لم تجد واحدة ، اللهم إلا امرأة عجوز . . . وربما وجدت فتاتين أو ثلاث ! .

أما الأغلبية الساحقة . . . فإنهن جميلات . . . جميلات . . . جميلات . . . ويبدو أن المينى جيب قد خلق لسيقانهن الرائعة خصيصاً ! !

وفى طريقى إلى عملى . أمشى كل يوم فى شارع سليمان باشا . وقبل سفرى إلى أوربا . كنت أقول فى هذا الشارع تسير أجمل البنات . . . بعد أن عدت . . . وسرت فى الشارع نفسه كان أول سؤال سألته : هل تحول الجمال والجميلات من شارع سليمان إلى شارع مجهول ؟ ! .

ولا بد لمصادقة فتاة فرنسية من تاريخ تنشأ فيه هذه العلاقة . . . وهناك عشرات الفرص للالتقاء بين الفتى والفتاة فى أوربا . . . وهذا فرق كبير بين هنا وهناك . فى العمل . . . فى المدرسة . . . فى المصنع . . وغيرها .

تستطيع أن تكلم أى فتاة فى الطريق . . . أو فى أى مكان . . . وقد تبدأ بسؤال عادى عن الطريق مثلا . . . وربما تطور ذلك إلى حديث أكثر اتساعاً وشمولا . . . وربما لم يتطور واستأذنت منك الفتاة . . .

وإذا ما أردت اجتزاء تاريخ العلاقة أو قفز مراحلها . . . فالأغلب الأعم أن علاقتك بالفتاة ستفشل . . .

فالفتاة الأوربية لا تحب الاندفاع . . . وتعتبر كلمات الحب والهيام التى درجنا عليها فى مصر عند ما تقال فى اللقاء الأول إنما هى من قبيل الدجل والتضليل ! .

فالمجتمع الأوربى لا يعيش فى حرمان يجعل من مجرد لقاء فتى بفتاة أو تلامسهما شيئاً رومانتيكياً تذوب له القلوب وتتوتر الأعصاب ! .

لذلك فمن المألوف وجود ذلك الشيء الذى نبحث عنه كثيراً فى بلادنا وهو الصداقة بين الفتى والفتاة دون أن يدخل فيها الجنس . . . كما لو كانت صداقة بين رجل ورجل .

وإذا ما أراد الفتى تعدى حدود الصداقة . . . قد تتركه الفتاة فى هدوء دون صفعات أو مناظر مسرحية ! . . . أو ناقشته فى صراحة وحرية تامة . . . قد تنتهى بالاستجابة وقد لا تنتهى .

وإذا ما أحبت الفتاة الأوربية . . . فليس ثمة حدود لمظاهر ذلك الحب . . . فى « الويك إند » يتوجه الاثنان بمعرفة أهلهما ودون تدخل منهم إلى أى مكان فى الريف أو على الساحل أو الجبال . . . يعيشان مع بعضهما معيشة كاملة . وقد يلتقيان فى بيت أحدهما . . .

كنت مرة فى زيارة عائلة إنجليزية . . . سألت الأم عن ابنتها . . . قالت لى فى بساطة : عند صديقها .

بعد فترة عادت « موير » من الخارج مع الصديق . . . قالت الأم فى بساطة أكثر :

ـــ أرجو أن تكونا قد قضيتما وقتاً طيباً ! .

وتحدثت مع الأم نفسهافى مرة عن مثل تلك « الحرية » للبنت . . . قالت : بعد ١٦ سنة ، البنت حرة تعمل وتتحمل مسئولية تصرفاتها . . . لماذا تختلف عن الولد ؟

هذا هو الطابع العام للبنات فى أوربا . . . إنهن يطبقن المساواة بين الرجل والمرأة فى كل الميادين . . . الاستقلال الاقتصادى يؤدى إلى استقلال فى السلوك .

وكما يمارس الفتى علاقات عاطفية وجنسية . . . تمارس الفتاة ، والفتاة الأوربية مقتنعة تماماً بأنه من الضرورى لها أن تدخل فيما تسميه « تجارب » قبل الزواج . . . وهذه التجارب يدخلن فيها بمحض اختيارهن ويعتبرنها تعبيراً عن حريتهن .

«آرليت مايو» نموذج لفتاة أوربية . . . هى مدرسة بلجيكية تعمل فى روضة أطفال فى مدينة لييج . . . تقبض مرتباً عالياً تحسدها عليه أية مدرسة مصرية . . . ثمانين جنيهاً وهى لم تتجاوز الثانية والعشرين من عمرها .

وآرليت تشغل نفسها طوال الأسبوع بتدبير النقود اللازمة لقضاء يومى العطلة السبت والأحد فى الريف أو على ساحل البحر . . . وفى إجازة عيد الفصح تذهب إلى فرنسا وفى حقيبتها عدة كتب أدبية .

وتتحدث كثيراً وبلباقة وبذكاء . . . وشخصيتها قوية تبدو خالية من العقد وأنيقة وجميلة ودمها خفيف . . .

ومع ذلك فهى لا تعرف شيئاً يذكر عن العالم عما تعرفه أية تلميذة فى مدرسة إعدادية فى مصر . . .غلبانة مصفرة الوجه من سوء التغذية ولم تغادر قريتها حتى إلى البندر فقط !

عرفت هذا عن آرليت خلال ساعة واحدة منذ ركبنا سوياً القطار من باريس إلى بروكسل .

ويستطيل بنا الحديث ثم تفاجئنى بقولها فى شبه تبرم خفيف :

— أنت تتعب نفسك فى السياسة . . . ما هى وظيفتك ؟

— آه صحفى . . . لقد كان لى صديق صحفى مرة . . . وأشاحت بيدها ملوحة نحو نافذة القطار وهو ينهب الطريق بسرعة ١٤٠ ك . م فى الساعة . . . وقالت :

— ولكنه ذهب . . .

* إلى أين ؟ . . .

مطت شفتيها فى ازدراء وقالت :

— كان من الجيزويت . . . لم تعجبه حريتى !

وأنت فى أوربا قد تلتقى ببعض الناس لا تعجبهم تلك « الحرية » التى تتمتع بها الفتاة الأوربية . . . فالصحفى الشاب الذى ترك صاحبتنا البلجيكية تركها لأنه تعود أن يقضى معها إجازة يومى السبت والأحد .

وذات أسبوع اعتذرت وقالت له بصراحة إنها تعرفت بصديق آخر دعاها لقضاء العطلة معه . وغضب الصحفى الجيزويتى برغم أنها وعدته أنها ستلتقى به فى الأسبوع الذى يليه . . . وقال لها إنه يرفض أن يكون « احتياطياً » لنزواتها كعجلة « الاستبن » فى السيارة ! .

* أى نزوات وأى احتياطى هذا المتدين المتعجرف !

قالتها آرليت وهى تضحك وتنهض قائلة لى — دعنا نشرب شيئاً فى عربة الأكل بالقطار . إن حرية الاختيار كما يسمونها هنا . . . هى النغمة التى تسمعها دائماً فى كل بلد أوربى .

ومن ثم فإن أى شعور من الفتاة الأوربية أنك تقسرها على شىء . . . أو تمس حريتها فى الاختيار هذه . . . كفيل بأن يفسد كل شىء فى علاقتك بها .

وربما وصلت الحساسية لحرية الاختيار هذه حد التعقيد والهوس . . . كأن ترفض فتاة الاستجابة لقبلة الآن ثم تستجيب بعد دقيقة . . . أو ترفض التوجه للفراش فى الساعة الثامنة . . . ثم تطلب بنفسها فى الثامنة

والنصف وهكذا ! ! .

ومن الطبيعى طبعاً فى مجتمع كهذا . . . أن كلمة العذرية ليس لها وجود فى الواقع . . . ولكن من المدهش أنك تجد فى بعض بقاع أوربا — فى الريف بالذات — أو بين قطاع الطالبات والعاملات القادمات من الريف . . . بقايا حرص على تلك العذرية .

ولكنها سرعان ما تذوب فى المدينة . . . وإن كانت تذوب فى حالات كثيرة بعد مقاومة ضئيلة أو كبيرة ! .

ولكن فى الريف هناك بعض الاعتزاز بهذه العذرية بين نسبة قليلة من السكان . . .

ربما لا تتجاوز ٣٠٪ أو ٤٠٪ خصوصاً فى ريف أسكتلندة فى بريطانيا . . . وجنوب فرنسا . . . وجنوب ألمانيا الغربية . . .

وطبيعى أن الفتاة الفرنسية والأوربية عامة ترقص وتشرب ، وهى ترقص كل أنواع الرقصات وتلاقى الرقصات الحادة رواجاً كبيراً بين المراهقات بل والنساء حتى سن الخامسة والثلاثين ، وتوحى الحركات العنيفة لرقص الشبان والشابات أن ثمة طاقة وثورة داخلتين حول شىء ما . . . لا يستطيعون التعبير عنه إلا بهذا العنف والانطلاق .

ويمكن القول دون مبالغة أن السائد فى أوربا . . . هو وحدانية العلاقات العاطفية . أى كل فتى له فتاة . . . اللهم إلا فى إنجلترا وهولندا حيث يشيع الانحلال فعلا . . . بمعنى تعدد العلاقات العاطفية والجنسية فى وقت واحد .

أما الفتاة الأوربية العادية . . . فهى تحب وربما عدلت عن الحب إلى صاحب آخر . . . ولكن فى كل حالة القلب له واحد . . . وبعد الزواج المبنى غالباً على الحب . يسود الوئام والوفاء الزوجى فى أغلب الأحوال .

وربما بدا للزائر الجديد لأوربا وهو يلمس تلك الحرية للمرأة الأوربية

أن الحب والجنس هما الشغل الشاغل لها . . . هذا أيضاً خطأ فادح يقع فيه ! .

فهذه الفتاة التى تترنح من النشوة والرقص فى البيست وربما صاحت صيحات هيستيرية وسيقانها تتعرى حتى لتبين ملابسها الداخلية . . .

تجدها فى الصباح فى المكتب أو أمام الآلة جادة تماماً فى العمل . . . لا تكاد تعرفك أو تعرفها . . . وتعمل ثمانى ساعات ونصفاً فى اليوم . . . تنتج إنتاجاً متزايداً . . . وتظفر بأجر متزايد .

وتستيقظ فى الصباح فى السادسة أو السادسة والنصف . . . وتزاحم فى المترو أو الأوتوبيس . . . لتصل بالضبط فى الثامنة إلى المكتب . . . وتعمل وتعمل . . . وتعود فى جدية وسرعة إلى البيت . . . وتغير ملابسها وتتناول طعامها . . . وتخرج لتلهو أو تحضر اجتماعاً أو ندوة ثقافية أو سياسية . . . ونفس هذه البنت ربما وجدتها تصرخ فى مظاهرة ضخمة فى شوارع باريس أن جونسون قاتل . . . السلام فى فيتنام . . . عاش الفيتكونج ! ! .

بقى سؤال . . . سألنى إياه الكثيرون ! .

ـ أيهما أجمل . . . البنت الأوربية . . . أو المصرية ؟

وبلا تردد ولا نفاق . . . أجيب : الأوربية بلا منافسة . . .

* ولكن المصرية تتميز بخفة الدم ! .

ـ والأوربية أيضاً عندها خفة دم . . . وهناك ثقيلات دم مثل ما توجد مصريات ثقيلات دم .

إن خفة الدم ليست احتكاراً لشعب من الشعوب فيما أعتقد .

وهذا الذى أقوله . . . لا يؤيده الواقع فقط . . . بل أيضاً المنطق .

إن الفرق بين المرأة فى أوربا والمرأة فى مصر . . . هو الفرق بين التقدم الحضارى لعالم يسبقنا بعشرات السنين . . . وبيننا نحن . . .

إننا بدأنا نسلك سبيل التقدم بعد معارك ضاريةمع من استعمرونا وحالوا دون تقدمنا !

المرأة الأوربية كانت لديها فرص التعليم والثقافة منذعشرات السنين .. وفرص العمل . . . وحقوق المساواة . . . وهى تأكل جيداً . . . وتعيش فى بيوت نظيفة ، والجمال مرتبط بالصحة لا شك فى هذا . . . ونور الوجه مرتبط بنور العلم والثقافة إلى حد كبير .

وانظروا إلى نسبة الجميلات فى حى الزمالك وفى سنجلف أو أبو طشت ! ! .

ليس لأحد أن « يزعل » إذن عند مانقول إن البنت الأوربية حورية من حوريات الفردوس بالنسبة لبناتنا المصريات . . . اللاتى يوجد فيهن طبعاً شواذ جميلات . . .

ومن المؤكد أننا كلما تقدمنا حضارياً . . . فى مستوى المعيشة والعلم . . . والصحة . . . والمسكن . . . والثقافة ، ستصبح بناتنا من أجمل بنات العالم ! ! .

« بنت باريس »

وبنت مصر ! !

زميلتى نادية عابد لها هواية غريبة . . هى قراءة البروفات على مكتب سكرتير التحرير . . ثم تنصرف بعد أن تترك مقالها الأسبوعى . .

وفى الأسبوع الماضى كنت ضحية هذه الهواية . . فقد قرأت ما كتبته عن « البنت فى باريس » فبادرت بتمزيق مقالها الأسبوعى الذى كانت قد أعدته . . وجلست إلى مكتب سكرتير التحرير وقد استفزها ما كتبت — ترد علىّ بأسلوبها الرشيق الذى لا يعادله إلا رشاقتها الشخصية !

وأود قبل أن أكمل ما بدأته من حديث عن المرأة الأوربية أن نضع بعض « التعريفات » لما نكتب تمسكاً بالمنهج العلمى الذى اتبعته فى ما أكتب عن أوربا ابتداء من دور الأحزاب السياسية إلى الاستربتيز فى البيجال !

وفائدة هذه التعريفات أنها تجعلنا لا نختلف فى فرعيات . . . وإنما فى أساسيات إذا كان لا بد من حدوث اختلاف . . .

ترددت كلمة الانحلال كثيراً . . . فى كل ما كتبه الكتاب عن أوروبا وشبانها وشاباتها . . . فماذا تعنى تلك الكلمة بالضبط ؟

الحقيقة أن معنى هذه الكلمة نسبى . . . يختلف حسب ظروف المجتمع وقيمه الأخلاقية السائدة . . . فمنذ خمسين عاماً كان الانحلال يعنى مجرد اختلاس النظرة لفتاة من وراء المشربية ! .

وفى عصرنا الحالى . . . وفى مجتمعنا المصرى . . . ليس من الانحلال طبعاً أن يتحاب الفتى والفتاة وإن يسيرا مع بعضهما فى الشارع ويتوجها إلى دور السينما والحدائق العامة . . . بينما كان ذلك قمة الانحلال والفساد منذ ثلاثين أو أربعين عاماً . . . وما زال فى بعض أقاليمنا المصرية يعتبر كذلك .

الانحلال الآن يكتسب معنى عالمياً . . . هو الإغراق فى اللهو والمتعة والانصراف عن المسئولية تجاه المجتمع والعمل . . . ومن مظاهر ذلك اللهو التحلل من أى قيد فى العلاقات مع الجنس الآخر كأن يكون للفتى أكثر من « حبيبة » وكذلك للفتاة . . . دون أى حساب . . . أو سرقة زوجات الآخرين من أزواجهن . . . إلخ .

نحن لا نحارب حق الفتى أن يحب ولا حق الفتاة أن تحب بل نحن ندعوهما للاختلاط والتفاهم والتقارب وندعو الآباء والأمهات أن يرعوا مثل تلك العلاقات لأبنائهم وبناتهم ويوجهوها . . . لأن مثل تلك العلاقات موجودة وستوجد سواء أراد بعض الناس أم لم يريدوا ! .

كلمة أخرى تحتاج إلى وقفة قصيرة . . . حرية الاختيار . . .

كان من حق الرجل فى جميع العصور أن يختار المرأة التى يريدها بحرية . . . ولكن المرأة كانت مسلوبة تماماً من هذا الحق . . . كان يفرض عليها أن تتزوج فلاناً ولا تتزوج علاناً . . . بل كان يفرض عليها الرق أيضاً ! .

والدعوة لتحرير المرأة كانت تعنى تحريرها من التبعة الاقتصادية للرجل وسيطرته لتتصرف هى بحرية كإنسان له حقوق . . . وبين تلك الحقوق « حرية الاختيار » ولا شك أنها حرية اختيار من يهفو إليه قلبها ومن تتزوجه مثل الرجل تماماً ! .

والحاصل الآن فى أيامنا أنه فى بلادنا . . . تكتسب المرأة المصرية حقها فى « حرية الاختيار » فى العمل والزواج والصداقة والسكن بمقدار

ما تتقدم فى المجالات الاقتصادية والثقافية السياسية . . . فمن المؤكد أن البنت الموظفة لها حرية الاختيار أكثر من تلك الفتاة التى تعيش فى غياهب الجب فى أعماق الصعيد « الجوانى » والصحف حافلة بالمآسى الناجمة عن افتقاد كثير من بناتنا المصريات حرية الاختيار هذه . . . فهذا الافتقاد فى الواقع هو أقصر الطرق للجريمة ومن بينها الخيانة الزوجية .

والمرأة الأوربية التى حصلت على استقلالها الاقتصادى منذ عشرات السنين . . . اكتسبت حق الاختيار هذا قبل الفتاة المصرية . . . ولست أدرى لماذا تعيب على نادية عابد . . . « انبساطى » من هذه الحقيقة ؟ ! .

إننى أريد أيضاً للفتاة المصرية أن يكون لها « حرية الاختيار » لأن ذلك يعنى تحررها الكامل من أى تبعية أو سيطرة « رجلية » . . . وستتعلم من التجربة والخطأ حتى تصبح مساواتها بالرجل شيئاً حقيقياً يتسم بالشخصية المتكاملة والشعور بالمسئولية.

وليست كل امرأة أوربية « تختار » الشذوذ وتدخين المخدرات . . . إن هناك من تختار ذلك ولكن من التجنى أن نظلم كل بنات أوربا بذلك . . .

إننى أود أن أذكر بعض الحقائق عن البنت الأوربية :

إن ألوف البنات الفرنسيات مثلاً كن ينمن على قضبان السكة الحديد لمنع سير القطارات التى تحمل أسلحة لقتال الوطنيين فى فيتنام والجزائر . . وهن لسن بنات شيوعيات فقط بل بنات عاديات « اخترن بحرية » أن يقفن بجانب حركتى التحرير الوطنى فى فيتنام و الجزائر بعد أن وعين الحقيقة . . .

إن أية مظاهرة الآن فى أى بلد أوربى ضد حلف الأطلنطى أو ضد سياسة أمريكا فى فيتنام تجد ثلثها أو نصفها من البنات .

إن الدعاية الصهيونية استطاعت أن تضلل أكثر من عشرين ألف

بنت أوربية معظمهن كاثوليكيات وبروتستانتيات للتطوع فى إسرائيل لزراعة الصحراء التى هجرها الرجال الذين ذهبوا ليقاتلوا العرب ! .

ونادية عابد يجانبها الصواب عند ما تقول أنى باركت حرية الاختيار لدى المرأة الأوربية وهى ترفض التوجه للفراش فى الثامنة ثم تطلب بنفسها فى الثامنة والنصف ! . فحقيقة الأمر أنى سخرت من تلك المبالغة والحساسية عند المرأة الأوربية بحكاية الاختيار هذه لأنها مظهر من مظاهر الاضطراب الذى ما زالت تعانيه الفتاة الأوربية من مخلفات عهد اللامساواة . . . برغم أنها أقدم فى المساواة بالنسبة للمرأة المصرية . . . وكانت كلماتى بالحرف . . . « تصل الحساسية إلى حد التعقيد والهوس كأن ترفض فتاة الاستجابة لقبلة أو ترفض التوجه للفراش . . . إلخ » .

وليس صحيحاً أنى أضفيت على الانحلال الخلقى كلمات منبهرة مثل « الحرية والتقدم والحضارة » . . . بالعكس أنى قلت بصراحة : إن الفتاة الأوربية بشكل عام تؤمن بوحدانية العلاقات العاطفية أما فى إنجلترا وهولندا فيشيع الانحلال فعلا بمعنى تعدد العلاقات العاطفية والجنسية فى وقت واحد ! .

وأكدت أن المرأة الأوربية المتزوجة بشكل عام تعرف الوفاء الزوجى . . . ولقد ألح على سؤال . . . لماذا هذه الحملة من جانب زميلتى نادية عابد ؟ . لماذا هذه الحملة على مكسب أساسى للمرأة هو « حرية الاختيار » مثلا ؟ . . ولا أظن أن نادية نفسها مستعدة للتنازل عن « حرية اختيارها » التى حققتها بفضل عملها وثقافتها . . . وتقبل أن يفرض عليها يوماً ما عريس ما مثلا ! . ولا أظن أنها مستعدة للكف عن كتاباتها الدائمة لتشجيع الفتاة المصرية على انتزاع حريتها من أنانية الرجال ! ! .

الحقيقة أن جوهر الموضوع الذى أثار نادية فى الحقيقة . . . وسيثير الكثيرات من الفتيات . . . هو رأيى فى جمال المرأة الأوربية . . .

وما سمته نادية بانبهارى وأستاذ مبهور . . . إلخ ولا بد مرة أخرى من أن نقف لحظة أمام معنى الانبهار .

يقف الزائر الأفريقى مثلا أمام مبنى عمارة الامباير ستيت فى نيويورك فيذهل لضخامتها وارتفاعها الكبير . . . فينتابه فى الغالب واحد من شعورين :

* قد يقول لنفسه إن هؤلاء الناس – الأمريكان – قد ملكوا ناصية التقدم والرقى . . . بينما نحن فى بلدى متخلفون فى أحراش الغابات . . . ويسترسل فى تفكيره فيرى أنه من المستحيل أن تتقدم بلاده وتلحق بهؤلاء « البيض العباقرة » فيشعر تجاههم بتقديس ويتملكه اليأس من أن تتقدم بلاده التى ربما احتقر كل ما فيها تحت وطأة شعور مروع بالنقص . . . وربما هجرها .

* وقد ينتاب صاحبنا شعور آخر . . . يعجب فعلا بالتقدم الحضارى الهائل . . . ويسلم به فى أمانة وموضوعية ولا يحاول أن يسخر منه على طريقة الثعلب الذى وصف العنب الذى استحال عليه بأنه حصرم ! . . . وإنما يفهم أسباب ذلك التقدم . . . وكيف أنه نتيجة لتراكم بدائى قديم ونهب لخيرات أمريكا اللاتينية بجانب نشاط الناس أنفسهم وكفاءتهم . . . إلخ ، ويتمنى أن تتقدم بلاده مثل الولايات المتحدة ويعمل على أن يصل بها إلى ذلك التقدم مع غيره من العاملين .

فى الحالة الأولى يكون صديقنا الأفريقى أستاذاً منبهراً أو مبهوراً . وفى الحالة الثانية هى رد الفعل الواعى الذى نريده لكل من يسافر إلى أوربا ... برغم أن تطبيق ذلك على رد الفعل بالنسبة للجمال . . . قد يكون مبالغة . . فمن شأن الجمال الإنسانى أن يبهر فعلا . . . وكلمة باهر صفة من صفات الجمال ! . فالجمال شىء مرتبط بالأحاسيس والعواطف والميل الجنسى . .

المهم . . . عندما يقول أحد إن المرأة الأوربية جميلة وحورية من حوريات الفردوس . . . وأجمل من المرأة المصرية يجب ألا يلومه أحد ؛

. . . فهذه حقيقة . . . وهى ليست حقيقة فى عواصم أوربا فقط . . . فنادية تعرف أنى لم أكن حبيس العواصم فى جولتى بل نزلت بطون مناجم الفحم والحديد كما ذرعت حقول الشوفان والتفاح وصعدت إلى مراعى الجبال . إنه من الغريب أننا عند ما نقول إن الموظف والفنى والعامل الأوربى أكثر كفاءة من زميله المصرى فى المرحلة الحالية لا « نزعل » . . . وعند ما نقول إن الفنانين الأوربيين أكثر براعة من الفنانين المصريين لا نزعل أيضاً . . . ولكن عند ما نقول البنت الأوربية أجمل نزعل ؟

لماذا ؟ . . . مع أن المسألة مسألة علمية ومنطقية بحتة . . . فوق أنها واقعية . . .

وعند ما أتحدث عن جمال المرأة المصرية لا أتحدث عن المرأة فى الزمالك وجاردن سيتى فهؤلاء قلت عنهم من قبل هل يستوى جمال المرأة فى الزمالك والمرأة فى سنجلف ، وأبو طشت ؟ . . . وهن فى الحقيقة يشكلن الأغلبية من النساء الشواذ الجميلات ! ! .

وفى الفرق بين المرأة فى الزمالك والمرأة فى سنجلف يكمن السبب فى تفوق الجمال الأوربى على جمال المرأة المصرية بشكل عام . . . أعنى المرأة فى الحقل والمصنع والمكتب والمدرسة والجامعة . . . بنات العمال والفلاحين والموظفين . . . أى هؤلاء الخارجات عن مجتمع النصف فى المائة ! .

والإحصائيات تقول إن جزءاً كبيراً من الفلاحين مصابون بالبلهارسيا والإنكلستوما والإسكارس . . . الواقع يقول إن هذه الأمراض الطفيلية تمتص رحيق الحياة والشباب والجمال من الرجال والنساء فى قريتى وأطراف مدينتى أيضاً ؟ ! .

والإحصائيات تقول إن متوسط عمر الفرد فى مصر ٣٨ عاماً . . . بينما هو فى أوربا ما بين ٥٥ و ٦٥ عاماً . . . وفى بلد كالسويد ٦٨ عاماً .

ألا يؤثر مستوى الصحة على شكل الإنسان ؟ . . لتذهب نادية عابد إلى مستشفى الأطفال فى أبو الريش لترى شكل أطفال الكادحين ... ثم

ترى شكل الأطفال على بعد مائة متر من المستشفى فى شارع القصر العينى وجاردن سيتى . . الذين يأكلون العيش الفينو والزبد والتفاح وهو الأكل الشعبى فى أوربا !

والصحة والشباب عنصر من عناصر الجمال . . . فرق بين الوجه المتفجر بالدماء والوجه المصفر من أكل السريس والمش ومية الملوحة وغيرها ! .

ألم ير أحدكم كيف يطحن الفقر الرجل والمرأة فى الريف حتى « تهرم » المرأة قبل الأوان . . . ويضمر جسدها ويعضم ؟

كم امرأة فى الريف والأحياء الشعبية فى المدن تستطيع الاستحمام كل يوم وتدليك الجلد ودهنه بالدهون . . .

إن الجمال صناعة أيضاً . . . والصناعة تحتاج إلى اقتصاد . . . والاقتصاد يحتاج إلى إنتاج . . . ومزيد من الإنتاج .

ونحن ما زلنا على أبواب التنمية والتطوير ! .

الفتاة الأوربية تستطيع ذلك بسهولة لأنها تتناول أجراً مجزياً يتناسب مع التقدم الصناعى الذى وصلته بلادنا . . .

لأنه فى بلد كفرنسا . . . توجد سيارة لكل أربعة أشخاص . . . وفى إنجلترا توجد ١٦ مليون سيارة لخمسين مليوناً من السكان بينما الشرق العربى كله فيه مليون ونصف مليون سيارة فقط ! ! .

هذه الراحة السكنية . . . و « الفسحية » تكسب الوجه إشراقاً وجمالا . . . يزيده طبعاً إمكانية الفتاة الأوربية من الالتحاق بالنوادى الرياضية . . . إننى فى كل مدينة أوربية بل وبعض القرى وجدت شيئاً أشبه بنادى الجزيرة الوحيد الفريد فى مصر . . . يغص بعثات البنات والأولاد . . . عمال وطلبة وفلاحين وموظفين . . . الكل يلعب ويكتسب جسمه رشاقة وخفة وجمالا . . .

والعمل . . . ما معنى العمل للمرأة ؟

العمل يعنى مزيداً من الخبرة بالناس وبالدنيا . . . ومزيداً من الثقافة . . . ومزيداً من تنمية الشخصية وتطويرها . . . وأيضاً مزيداً من الأناقة . . . وأهم من ذلك مستوى أعلى من الحياة يمكن من مكافحة المرض ومن تناول الطعام الذى يزيد الوجه نضارة . . .

المرأة فى أوربا تعمل. . . ٨٠٪ من نساء أوربا يعملن . . . وفى بلد كألمانيا الغربية تصل النسبة إلى ٩٢٪ وفى بلد كهولاندا تمثل المرأة العاملة ٥٢٪ من مجموع العاملين ؟ ! .

كم امرأة فى مصر خرجت إلى حقل العمل . . . الإحصائيات تقول : حوالى ربع مليون فقط من خمسة عشر مليون أنثى ؟ !

هذا فيما عدا طبعاً النساء الكادحات فى الحقل . . .

ومما يثير الدهشة . . . أن يسخر أحد من بديهية معروفة أن نور الوجه مرتبط بنور العلم . . . العلم يصقل الشخصية وينميها ويضفى عليها جاذبية . . .

نسبة الأمية فى بلدنا ما بين ٦٥٪ و ٧٥٪ وبين النساء أكثر . . . كم بنتاً دخلت المدارس الثانوية مثلا عندنا ؟ فى أوربا تدخل كل بنت المدرسة الثانوية ! . . .

باختصار إن العمل والتعليم والصحة والفسحة كل ذلك مظاهر للتقدم الحضارى . . . الذى سبقتنا إليه أوربا منذ سنوات طويلة . . . وهذا التقدم له انعكاساته ونتائجه . . . ويجب ألا « نزعل » أننا لم نلحق به بعد . . . بل يجب أن نفهم أسبابه . . . ونتحمس لإزالة الفرق بيننا وبين أوربا . . . وأن نتخطى ذلك الفرق على الأقل فى بعض المجالات إن لم تكن كلها .

وبعد . . . فقد كنت أود لو أن نادية عابد صحبتنا فى رحلتنا الصحفية : الرسام جورج البهجورى ومفيد فوزى وأنا . ونحن نعقد الندوات مع بنت بلدنا فى كل محافظة نناقش مئات الطالبات والموظفات والممرضات . .

والطبيبات والعاملات . . . يتحدثن عن رأيهن فى العدوان وأسباب النكسة والحب والزواج وسلطة الآباء ونظام التعليم والاتحاد الاشتراكى وفترة الخطوبة . . . إلخ . . .

فى ندوتى الزقازيق وطنطا . . . أثارت البنات معنا رأى نادية عابد . . . وكلهن بالإجماع ما عدا واحدة . . . قلن إن تلك حقيقة أن البنت الأوربية أجمل من المصرية . . . وعللت الكثيرات ذلك بأسبابه الحقيقية . . . ولم يخفين رءوسهن الجميلة أو غير الجميلة فى الرمال ! ! . ولم يستسلمن للعواطف . . . فالحقائق والواقع أقوى من أى ريح أو زوابع عاطفية ! . . .

من يزور فرنسا . . لا بد أن يزور :
چان دارك . . والسوق الذى حرقوها فيه . . كما يزور اللوفر . . والطريق إلى روان . . طريق جميل تمر خلاله بالريف الفرنسى الرائع . . ثلاثمائة كيلومتر فى نورماندى . التى اشتهرت أيضاً أثناء الحرب العالمية الثانية . .

چان دارك . .

راعية الغنم التى توجت ملكاً . . .

« مولاى . . . اسمى چان . . . ويسمونى بجان الوصيفة . . . ويود ملك السماء أن أزف إليك بشرى تتويجك يا ولى العهد ملكاً فى مدينة ريمز على كل فرنسا . . . وسأكون أنا خادمة لرب السماء وظله على الأرض ملك فرنسا ! . . . » .

القروية الصغيرة تقف أمام ولى عهد فرنسا . الذى أصبح فيما بعد شارل السابع — وهى تلقى إليه بهذه الكلمات فى خضوع وثقة فى نفس الوقت ، وحول الأمير وقفت الحاشية تنظر فى سخرية إلى تلك الفتاة التى ترتدى ملابس الرعاة الخشنة . . . وتزعم لنفسها القدرة على تنصيب الملوك على العروش . . . وتحدى أولئك الذين يحتلون ريمز منذ سنوات طويلة ولم يستطع أحد أن يخرجهم منها . . . بل لم يحاول ! .

ومنذ الصباح المبكر فى يوم ٢٩ مارس عام ١٤٢٩ وچان تلقى تلك السخرية وهى تقف أمام الحصن الكبير ، حصن شنيون تطلب مقابلة ولى العهد . . . فالحرس يسخر منها ويرفض تحقيق رغبتها إلى أن وقعت على الأمير مصادفة . . . وتقول التهاويل التى أضيفت إلى قصة چان دارك

إنها عرفته على الفور برغم أنه كان متنكراً فى زى الحرس ذلك لأن القديس الذى كان يلازمها دائماً كخيالها ألهمها ذلك ! . . .

صور التاريخ تتالى فى مخيلتى كشريط السينما وأنا واقف أمام حصن شنيون الكبير .. وعلى بعد كيلو مترين فى رامبلية ترتفع عالية أبراج أولى محطة كهربية ذرية فرنسية . . . إن وقفة الراعية الصغيرة أمام أبواب تلك القلعة . . . هى أول الطريق الذى عبرته فرنسا كلها خلال خمسة قرون حتى يستطيعوا بناء تلك المحطة التى تشهد بتفوق الإنسان إذا ما حقق حريته ! .

وفى تلك الأيام من أيام القرن الخامس عشر لم تكن هناك فرنسا . . . وهى صورة تبدو غريبة وصعبة التصديق وأنا أعيش وكلى إحساس بفرنسا . . فنحن وقوف أمام القصر . . . وحولنا مئات من الناس قدموا من كل أنحاء العالم . . . ليزوروه . . . « والأوتو روت » تحت أقدامنا تقطعه سيارات ألد . إس الفرنسية المميزة والبيجو والرينو بسرعة هائلة قدتزيد أحياناً عن ١٦٠ كيلومتراً فى الساعة . . . ومن حولنا الريف الفرنسى المرسوم بيد فنان جعل من الأرض والجداول والقنوات صورة منسقة منظمة . والأولاد والبنات الفرنسيون الشطار يلعبون على السياح بذكاء ومهارة فيستلون من جيوبهم الدولار والفرنك واحداً بعد الآخر لقاء خدع سياحية موجودة فى كل مكان سياحى فى العالم ! .

ومن حين لآخر تدمدم وتصفر فوق رءوسنا طائرة أو طائرات . . . فيشيرون إليها وإلى ذيلها الأبيض الطويل . . . ويقولون الميراج الفرنسية ... لصاحبها روبير داسو . . . أكبر رأسمالى فرنسى . . . وثمرة وحدة فرنسا التى كانت مقسمة وممزقة إلى مقاطعات فكان أجداد أجداده من الرأسماليين أول من استفادوا بهذه الوحدة . . . وقطفوا ثمارها . . .

ولم تكن چان دارك تعلم وقتها أنها وهى تنفخ فى روح الشعب الفرنسى لأول مرة شعور القومية مجمعة إياهم ضد الإنجليز الذين كانوا يحتلون

أكثر من نصف المقاطعات الفرنسية . . . لم تكن تعلم أن من سيرث نضالها هم أجداد داسو . . . بل لم تكن تعرف أن هؤلاء الأجداد سيتآمر بعضهم عليها مع أعدائها بعد أن يصبح وجودها خطراً عليهم . . .

ونحن لا يهمنا أن نعرف ما إذا كانت چان دارك قد تحركت لبعث الشعور القومى المدفون تحت رماد الخوف واليأس فى قلب الشعب الفرنسى . . . لا يهمنا أن نعرف إذا كان تحركها ضد الإنجليز بدافع منها وحدها .. أو أن أحداً لقنها ذلك .. ودفعها إلى أن تقابل ولى العهد.. ولا يهمنا أيضاً إذا كانت تسمع أصواتا أو لا تسمع ..

فى تلك الأيام من القرنين الرابع عشر والخامس عشر . . . كان للقديسين شأن كبير فى التأثير على معتقدات الناس وأفكارهم وسلوكهم . . بل إنك لتجد فى القرن العشرين اليوم وعلى بعد عدة كيلومترات فقط من المحطة الذرية التى أشرنا إليها من قبل فتاة تدعى أنها على صلة بالقديسين والشهداء . . . ويحج إليها الرجال والنساء بالمئات كل يوم سبت وأحد ! ! . .

ولم يكن أيضاً عبثاً أن التقطها ولى العهد عند ما التقت به . . . وحدثته عن نبوءة تتويجه فى ريمز المدينة التى يحتلها الإنجليز . . . وأثارت فى نفسه الخيال والطموح اللذين لا شك قد أدارا رأسه من قبل . . . ولكن هذه الفتاة الريفية الساذجة قد تصلح ملهماً أسطورياً لفرنسا كلها . وخاصة فلاحيها الذين يبدو أنهم قد أقسموا ألا يتحركوا . . .

وقد صدق حدس الأمير . . . وجرت أحداث القصة المعروفة . . . التى تبارى الكتاب فى كتابتها فى عشرات القصص ، وكتب التاريخ منذ عام ١٧٠٠ حتى يومنا هذا . . .

وتستطيع أن تشاهد فى متحف چان دارك بمدينة روان بمقاطعة نورماندى أكثر من مائتى كتاب بأكثر لغات العالم المعروفة : الإنجليزية والفرنسية والأسبانية والألمانية وحتى اليابانية . . . وأسفت أن لم أجد كتاباً واحداً باللغة العربية . . .

وقصة چان دارك وآثارها فى فرنسا تستهوى أكثر الذين يزورون البلد الكبير ...،

وقصر شينون الذى كان بداية القصة المثيرة ... يقع على ضفة نهر السين فى مقاطعة أنجى ... واحد من عشرات القصور والحصون والقلاع التاريخية التى تزدحم بها منطقة اللوار ...

وهى قصور وقلاع تزدحم كلها بقصص الملوك وخداعهم .. ومؤامرات البلاط والعشيقات ومباذل الإقطاع كلها مجسمة فى الترف الغريب ... والصور الفاضحة المذهلة ... وأشياء كثيرة ...

ومنطقة اللوار هذه كان ملوك فرنسا الأقدمون يعتبرونها مركزاً لحكمهم الفعلى؛ فهى فوق موقعها فى قلب فرنسا تقريباً ... فهى أيضاً أخصب البقاع فيها حتى يسمونها « بساتين فرنسا » ...

قصر شينون من تلك القصور ... وجدرانه قد شهدت بداية القصة النظيفة الوحيدة التى نبتت فى قلاع العفن ... وهى جدران واطئة نال أغلبها الهدد ... كما نال أيضاً أركاناً من القصر الصغير الذى تتفوق عليه قصور أخرى مثل قصر كولود وأنجى ونونسى ... ومع ذلك فإن أكثر السياح يزورونه وخاصة السياح الإنجليز ... ولربما كان ذلك لأنهم شغوفون أن يروا ذلك المكان الذى بدأت فيه فلاحة بسيطة حرباً مظفرة ضدهم ... وربما أيضاً بدافع من شعور بالذنب لارتكابهم أبشع جريمة تاريخية فى العصر الوسيط وهى حرق بطلة وطنية حية ...

وأكاد أذوب من فرط التأثر وطوفان ذكريات التاريخ يغمرنى وأنا أقف أمام التابلوهات المجسمة وقد أبدع الفنان صبها فى تماثيل الشمع فى متحف چان دارك بروان ... يحكى كل تابلوه فصلا من القصة الدامية.

هنا فى باريس انتصرت جيوش ولى العهد التى كانت چان على رأسها.

وقبل المعركة تركع فى خلوة « لتسمع الأصوات » وتخرج تثير الجنود وتعبئهم حول مشيئة القديسين التقدمية فى دحر العدو ! ... أو تبعث

بالرسائل إلى أهل مدينة تقترب منها جيوشها . . . كأنها منشورات تعبئهم للمعركة المنتظرة . . .

وأمامى تنبسط وراء ألواح الزجاج . . . مخطوطات بطلة القومية الفرنسية فى وقت مبكر كانت كلمة القومية فيه لم تجد بعد لها مكاناً فى قواميس أية لغة فى العالم . . . يدها الصغيرة كتبت تلك الكلمات . . . من چان دارك . . . چان الخادمة للرب العظيم . . . أنتم أحبائى أهل أورليانز . . . ستنتصرون بمعونة جيوش ملك ريمز وراية القديسين فوقنا . . . على جيوش الشياطين . . . فأعدوا السيوف والفئوس . . . واستعدوا لاستقبالنا على السلالم التى سيصعد فوقها جنود سيدنا ملك ريمز إلى قمة قلاع أورليانز . . برغم الزيت المغلى . . . و . . . رسائل عديدة . . . كلمات بسيطة . . . ألهبت أمة . . . أو بالأحرى خلقت أمة . . .

وانتصر الفلاحون الحفاة على الجنود الإنجليز المجهزين بالمدافع وتحققت نبوءة چان وتوج الملك فى ريمز . . .

ومن ريمز إلى أورليانز . . . وفى باتانى اكتساح آخر . . .

وكما يحدث فى التاريخ الحاضر . . . حدث فيما مضى . . . خاف المستغلون من زحف الفلاحين والذين شجعوا چان دارك فى البداية بدءوا يخذلونها . ومن الخلف دارت المساومات فى ظل التهادن . . . حتى الملك الذى توجته تردد . . . ونجحت المؤامرة الإنجليزية بالتعاون مع الكرادلة وسادة المقاطعات الذين أرعبتهم صحوة الفلاحين . . . والتجار الذين وعدهم الإنجليز بتسهيل مرور تجارتهم دون ما حاجة إلى ثورة فلاحين . . .

ولعل هذه المعانى جميعاً كانت فى رأس الفنان العظيم الذى جسم فى تماثيل الشمع عملية تسليم حاكم كومبتن چان دارك للإنجليز ، إذ جسم الفنان استبشاعه لتلك الجريمة تجسيماً مثيراً يذهل النفس ويجعلها تغلى بالحقد على الخيانة . . .

ويشدنا تابلوه آخر . . . يكاد ينبض بالحياة . . . محاكمة چان دارك وترحيلها للسجن . . . وحياتها بالزنزانة . . .

ومن أروع التابلوهات فى المتحف تابلوه يعبر عن لحظة نفسية حرجة . . . چان دارك تضعف للحظة فى سجنها وقد عذبوها وضيقوا عليها الخناق فتعترف أنها لا تسمع أصواتاً لقديسين . . .

وهو الاعتراف الذى استغله أعداؤها ضدها ليثبتوا أنها دجالة ساحرة تستحق الحرق حية . . .

ونمضى ننتقل من غرفة إلى غرفة وأرواحنا تكاد تنصهر مع تماثيل الشمع التى تصور أحداث التاريخ ، فنشهد چان دارك فى العربة تحملها إلى مكان الحريق . . . ثم وهى تصيح قبل أن تصعد إلى منصة الحريق أنها كانت تسمع أصواتاً تأمرها بأن تفعل ما فعلت وأنها مستعدة أن تكرر ما فعلت مرة أخرى لو أتيحت لها الحياة من جديد . . .

والنار تحرق البطلة . . . والإنجليز يأمرون بجمع الرماد المتخلف من حرقها . . . ويذروه الجلادون مع الرياح فى مياه السين . . .

ومن ثم فليس لجان دارك مقبرة وإن كان لها فى كل مدينة فى فرنسا تمثال أو شارع باسمها تقريباً . . .

وهذا التخليد لجان من زمن بعيد . . . إلا أنه يبدو أن الحكومات الحديثة فى فرنسا . . . لا تعنى كثيراً بتخليد ذكراها . . . بعد أن فعلت كثير من تلك الحكومات الكثير مما فعله حارقو چان دارك ! . . .

فمن العجيب أن متحف چان دارك فى مدينة روان «قطاع خاص»! ... أقامه رجل يستغله تجارياً فيتقاضى ثلاثة فرنكات أى ثلاثين قرشاً من كل من يدخله . . .

وفى المدينة روان نفسها . . . يوجد الميدان الذى حرقت فيه . . . فلم يكن الإنجليز يجرؤون على حرقها فى أية مدينة أخرى غير هذه التى كانت أقوى معاقلهم . . .

ويتوقع القارئ أن يكون الميدان واسعاً كبيراً... يعكس جلال الذكرى والتاريخ فى عاصمة نورماندى التى يسكنها مائة وثلاثون ألف نسمة ...

ولكن الميدان عبارة عن سوق سمك . . . سوق أشبه بسوق باب اللوق . سمك وجنبرى وأصداف بحر متنوعة الأشكال والأحجام . . . ولحم بقر ولحم خنزير وطيور وخبز وخضر وفواكه وفول سودانى وفسدق وجبن وزبد وكستناء . . . و . . . زيطه وهرج ومرج . . . تثيرها لوريات داخلة وأخرى خارجة ومنادون وتجار جملة وتجزئة يتساومون ! . . .

ووسط كل تلك الزيطة دائرة صغيرة مساحتها لا تزيد عن أربعة أمتار مسورة بسور حديدى قصير . . . ومبلطة بالرخام . . . ولافتة صغيرة تكثف التاريخ كله فى كلمات : هنا منصة حرق چان دارك ! .

حول ميدان السوق بيوت قديمة أكثرها منذ خمسة قرون . . . وما زالت تحتفظ من الخارج بطابع مقاطعة نورماندى الفريد... الخطوط الطويلة البيضاء والسوداء المتقاطعة التى تشبه زواق السحرة على وجوههم فى أدغال أفريقيا ...

من هذه الشبابيك أطل السكان على چان دارك وهى تحترق . . . وهم مذهولون . . . مشلولون عن عمل أى شىء . . .

وعلى بعد أمتار قليلة من البقعة المقدسة ... جلست شابة صغيرة جميلة ربما كانت فى عمر چان دارك تبيع الزهور والورود على مائدة صغيرة ...

وقفت طويلا . . . أنا ورفاقى چان كلود وكارمن وچاكلين . . . نسرح مع التاريخ . . . واتجهت فى بطء إلى بائعة الزهور واشتريت باقة صغيرة من الورد . . . وأخرجت من جيبى ورقة كتبت عليها :

لذكرى بطلة . . . من صباح الخير مجلة مصرية . . . تجمعكما الوطنية . . . وحب الناس البسطاء ! .

زيارة سريعة فى بلجيكا وهولندة :

مغامرة مع المرتزقة . . فى بروكسل

فى الساعة السابعة والنصف مساء يوم اثنين دخلت مقهى « المورلوج » أسفل عمارة « الباميد » ذات الثلاثين طابقاً فى « بورت دى نامير » ببروكسل . .

وجلست إلى إحدى الموائد أحتسى قدحاً من الجعة الألمانية وأنا أسرح بخواطرى إلى الطابق الذى يعلو المقهى مباشرة حيث تتجسد مأساة لنهاية بائسة لسياسى خان مبادئه . . « هنرى سباك » زعيم الحزب الاشتراكى البلجيكى ورئيس الوزراء لسنوات عديدة وسكرتير حلف الأطلنطى السابق الذى أودى به فى النهاية إلى أن يقبع خلف مكتب كمدير لشركة أمريكية بمرتب اثنى عشر ألف جنيه فى الشهر . .

ومرت عشر دقائق وصديقى « بيير لوجريف » عضو مجلس النواب البلجيكى ورئيس تحرير مجلة « لاجوش » اليسارية — الذى كنت فى انتظاره — لم يأت بعد . .

وفجأة فتح باب المقهى . . ودخل رجل طويل عريض المنكبين يرتدى جاكتة من الجلد . . ذو شارب كث مهدل على شفتيه . . صورة فعلية للرجل الشرير الذى نراه على شاشة السينما . . وتفرس الرجل فى وجوه الجالسين والجالسات حتى وقع بصره على فاتجه ناحيتى وهو يحمل فى عينيه نظرة جامدة غير ودية ! .

ووقف أمام مائدتى وهو يبتسم ابتسامة خفيفة ساخرة . . وقال لى بالفرنسية :

— هوذا أنت . . هل أنت صحفى حقاً ؟ . .

فأومأت برأسى وقد قفزت إلى مخيلتى على الفور تحذيرات صديقى شريف منصور مدير مكتب وكالة أنباء الشرق الأوسط بباريس . . وأعترف أنه تملكنى الخوف ! . .

سحب الرجل كرسياً وجلس قائلاً فى لهجة استفزازية .

— أنت مغرور . . وتتعرض لمسألة « أنت مش قدها » .

قلت وقد بدأت أفهم . . وأتحفز فى الوقت نفسه للاستغاثة !

— أى مسألة ؟

— قال : أنت مغرور مرة أخرى . . . قهوة كارتاج . . لقد كشفوك بعد قليل . . .

وأضاف بلهجة فيها وعيد . .

— إذا لم تترك بروكسل فوراً . . فلن ينفعك ناصر !

قلت وأنا أكاد أصرخ من الغضب والخوف معاً . .

— إذا لم تغادر أنت هذا المكان الآن . . فسأستدعى البوليس . .

ووقفت وأنا أمسك أطراف المائدة بيدى كأنما أتهيأ لقلبها على الرجل لدى أى حركة مباغتة . . منه . . وأصابعى ترتجف من الانفعال . .

فى هذه اللحظة جاءت النجدة ! . . دخل « بيير لوجريف » المقهى ونظر إلىّ وإلى الرجل الشرير فى تساؤل ودهشة . .

وسأل ما الحكاية . . فشرحت له الموقف بكلمات مختصرة وقال لوجريف للرجل وهو يخرج له بطاقة عضويته لمجلس النواب . .

— انصرف . . وإذا تعرضت للسيد مرة أخرى . . ستدخل السجن . .

قال الرجل فى برود وهو يسحب أذياله . . خارجاً من المقهى . .

— من الأفضل أن يعود صديقك المصرى من حيث جاء . .

وعندما اقترحت على لوجريف أن نبلغ البوليس ضحك قائلاً :

— إن البوليس لن يفعل شيئاً . . فأعمال تجنيد المرتزقة تدور تحت سمعه وبصره . . إنهم فقط « يهوشوك » فلا تهتم بالأمر . .

* * *

بدأت فى باريس البحث فى موضوع المرتزقة . . الخطر الذى تهدد

ويهدد كل يوم بشكل يتسع أكثر فأكثر كل الحركات الوطنية لا فى آسيا وأفريقيا فقط . . بل أمريكا اللاتينية أيضاً كما سنرى . .

وقيل لى فى باريس . . إن مركز تجنيد المرتزقة قد انتقل من هناك إلى بروكسل وأمستردام . . بعد أن انكشف كل شىء تقريباً عن عمليات باريس وفضحت الصحف الفرنسية كل أسرارها وخاصة لوموند . .

على يمين الداخل فى زقاق صغير متفرع من ميدان جراند بالاس فى العاصمة البلجيكية يوجد مقهى الكارتاج . . وهو مقهى يقع أسفل مبنى قديم نسبياً . . جدرانه عليها نقوش على الطريقة العربية . . فصاحبها اسمه محمد ميساوى أردنى الأصل وإن كان يحمل جواز سفر تونسى . .

دخلت المقهى ظهر يوم السبت . . وجلست أتأمل المكان من حولى فى فضول . . وطلبت شاياً . . وأنا أقول للجرسون أريده على الطريقة العربية . .

وعندما جاء بالشاى فوجئت برجل يتبعه ووقف أمامى قائلا بلهجة عربية ذات لكنة أجنبية . .

— شرفت . . منين المليح ؟ . .

قلت بالعربية إنى أريد مقابلة مروان المعلم . .

قال وقد بدا عليه الاهتمام . .

— زين . . المعم ما موجود . . إيش بدك ؟ . .

قلت للرجل « مستعبطاً » ! . .

بدى . . بد كل واحد عاوز يشوف مروان ! . .

وجلس الرجل . . ودار الحديث بيننا وأنا أحاول تمثيل شخصية رجل يريد بحث إمكانيات مروان المعلم فى تجنيد المرتزقة فربما كان بعض أصدقائى يهمهم الأمر ! . .

وقال الرجل إن مروان فى لندن الآن .. فهو يحمل جواز سفر دبلوماسى من السعودية برغم أنه لبنانى . . وسألت عن محمد ميساوى صاحب القهوة ؛

فقال إنه مسافر إلى جهة غير معروفة . وإن سفر الاثنين يعطل أشياء كثيرة ؛ فثمة مائة يونانى اتفق معهم على الالتحاق بفرق المرتزقة . . ودفع لهم عربون . . ريثما تتم إجراءات سفرهم إلى مراكز التدريب . وقد أنفقوا العربون عن آخره وما زالوا فى الانتظار !

وغادرت مقهى الكارتاج على أن أعود لصديقنا بعد أيام . . ولكن فيما يبدو أن أصدقاء صاحبنا استرابوا فى أمرى . . علاوة على الاتصالات الواسعة التى قمت بها خلال الأسبوع الذى قضيته فى بلجيكا . . فحدث ذلك اللقاء غير الودى فى مقهى الهورلوج . .

* * *

وتقصى موضوع تجنيد المرتزقة عملية فى غاية الصعوبة . . لأنه ليس هناك مركز واحد لتلك العملية . . إن ثمة مراكز متعددة ولا يربط معظمها رابط . . بل إن ثمة منافسة حادة بين بعضها البعض . . فهى عملية مربحة لأى مغامر أو مغامرين يتعهدون بتوريد الأنفار . . وثمة نصابون دخلوا فى الميدان وأعلنوا فى بعض الصحف الرجعية بطريقة غير مباشرة على طريقة إعلانات القوادين والغانيات فى الصحافة الأوربية . .

واحد من هؤلاء النصابين مثلا المدعو چان كرو الذى قالت لى زميلتى الصحفية مارى كلير بوردو المحررة بجريدة « لو سوار » البلجيكية إنها شخصياً عرفت أنه ضحك على كثيرين ممن جاءوا « لشراء » مرتزقة واستولى من بعضهم على ملايين الفرنكات البلجيكية ، ثم عبر الحدود واختفى عن الأنظار . ومن الطبيعى أنه لم يكن بوسع أولئك المخدوعين أن يشكو الأمر للبوليس طبعاً . وعندما نشرت « سى سوار » الحكاية وأسماء الأشخاص الذين خدعوا أصدرت بعض السفارات التابع لها هؤلاء الأشخاص بيانات تنكر فيها أن هناك مواطنين من بلادها يحملون تلك الأسماء !!

ومع تشابك الخيوط وتعدد المراكز وتشعب الاتصالات وضيق

الوقت . . مع ذلك فإننا نستطيع أن نقول إنه فى بلجيكا يوجد مركزان رئيسيان للتجنيد : أحدهما فى بروكسل والثانى فى لييج .

فى بروكسل قهوة الكارتاج التى تحدثنا عنها ، ويدير المركز محمد ميساوى وجورج مروان المعلم ، وهما أفاقان عالميان فى الغالب ينتحلان أسماء عربية ، ولا يقتصر نشاطهما فى تجنيد المرتزقة على مكان دون آخر ، بل إن نشاط المركز دولى . . فمثل هؤلاء المديرين من شذاذ الآفاق الذين يبيعون أدوات القتل البشرية لمن يدفع الثمن بصرف النظر عن جنسيته تماماً كتجار أسلحة الدمار نفسها . .

أما فى لييج وهى أكبر مركز صناعى فى بلجيكا . . والمدينة التى سجل التاريخ لعمالها بالذات آيات من النضال البطولى ضد النازية وضد الملك ليوبولد صنيعة النازى ؛ فإن هذه المدينة ملوثة بمركز لتجنيد المرتزقة يقع فى ١٥٩ شارع سانت مرجريت . . مكتب مفتوح فى الظاهر لإجراء خدمات للعمال الأجانب فى مصانع لييج ويديره بلجيكى اسمه « مارتان فالونى » .

ومن الطريف أن هذا المكتب يقوم بعملية مزدوجة لحساب طرفين متنافرين تماماً . . ففى الوقت الذى جند فيه ٥٠٠ شخص لحساب تشومبى تمهد للوثوب على كاتنجا فى اللحظة الملائمة والإطاحة بحكم موبوتو . . فإن المكتب نفسه يقوم بعملية تجنيد مستمرة لحساب الكولونيل بوب دينار قائد جيش المرتزقة التابع لموبوتو نفسه !!

وبوب دينار يجرى عملية تطهير ضد بقايا الثوار الكونغوليين بقيادة موليلى الذى كان معتصماً ببعض أحراش الكونغو بعد هزيمة ستانلى فيل ، فى الوقت نفسه الذى يستعد فيه دينار لملاقاة جيش تشومبى . . أى مرتزقة يحاربون مرتزقة !

وعملية التجنيد لا تقتصر على توريد أنفار للكونغو . . فثمة مندوبون مشبوهون يأتون بروكسل كل يوم لتجنيد مرتزقة للحرب ضد الوطنيين فى

أنجولا وموزمبيق وجنوب أفريقيا ، واليمن . ومن المعروف أن تلك البلاد التى تواجه ثورات الشعوب التى تستعمرها أو التى تخشى من استقلالها ، تتعاون مع كل إدارات المخابرات الاستعمارية الصغيرة والكبيرة ابتداء من البرتغال حتى الولايات المتحدة إلى أوسع مدى . . ويجرى تمويل عملية تجنيد المرتزقة للحرب فى أنجولا وموزمبيق وغيرهما وقد دفعت إحدى الدول مثلا لمكتب لييج عشرة ملايين فرنك بلجيكى ، أى مائة ألف جنيه ، دفعة واحدة لحساب عملية تمويل تجنيد مائتى مرتزق من رجال الباراشوت لنقلهم إلى أنجولا !

وقد حدثت هذه العملية خلال زيارتى . . وعشت على هامشها ولهذا التمويل طبعاً ما يقابله . . وتحدث مبادلات ومساومات مثل الاتفاق على أن تجرى عملية تدريب الجنود المرتزقة الذين يواصلون التحرش بالثورة اليمنية . وفى معسكرات تدريب متبادلة !

والطريف أنه فى معسكرات التدريب السرية فى البرتغال يوجد معلمون لتعليم الجنود بعض الكلمات والعادات العربية استكمالا لتدريبهم . . ومن بين ما يعلم هؤلاء المرتزقة ألا يشربوا الخمر أمام العرب . وأن يتستروا تماماً فى مسائل الشذوذ الجنسى — وهى من المسائل الطبيعية فى أوربا — وهم يعدونهم هناك بمستعمرة للحريم تقام فى الصحراء يترددون عليها من حين لآخر !

الحمار أزمة ثقافية فى هولندا

جرهارد كورنيلوس فان هت . . . كاتب هولندى فى الثانية والأربعين من عمره يعيش فى أمستردام . . .

أثار ذلك الكاتب ضجة كبرى فى هولندا وفى أوربا كلها تقريباً فى أوائل العام الحالى وما زالت الضجة موجودة حتى اليوم . . .

سبب الضجة أن هذا الكاتب أصدر رواية — وهو روائى معروف فى هولندا — البطل فيها حمار . . . وإلى هنا والأمر ليس غريباً . . . ولكن الغريب .... أن الحمار فى هذه الرواية مصاب بالشذوذ الجنسى . . وأنه يقع فى غرام رجل من بنى البشر ! .

ولقد أثارت تلك الرواية المقذعة الشاذة ثائرة الكتاب والنقاد فى هولندا . . . وهاج الجميع . . . ابتداء من الكنيسة إلى أقصى دوائر اليسار المتطرف . . . التى اعتبرت مثل ذلك الخيال المريض لكاتب معروف انعكاساً لحضارة أوربية تذبل وتتخبط فى عنكبوت الرأسمالية ! .

واضطر النائب العام فى هولندا إلى تقديم الكاتب والرواية إلى المحاكمة للحصول على قرار من محكمة أمستردام بمصادرة الكتاب على الأقل . . .

وكان قد بيع منه أكثر من ١٢٠ ألف نسخة ! .

ونوقشت القضية فى طول البلاد وعرضها فى الإذاعة والتليفزيون وحتى فى المدارس الثانوية . . . وأخيراً صدر قرار المحكمة برفض دعوى النائب العام قائلة فى حيثيات الحكم : إن « الكاتب لم يخرج عن حقه فى التعبير عن آرائه وعواطفه بالطريقة التى يكفلها له القانون ! » .

وعند ما سألت صديقى « فان دى بول » نائب نقيب الصحفيين فى هولندا أثناء زيارته لمصر عن ذيول تلك القضية التى حضرت طرفاً منها فى أمستردام فى صيف العام الحالى . . . قال لى إن النيابة إستأنفت



حمار هولندی

الحكم أمام المحكمة العليا فى هولندا ، غير أن هذه المحكمة لم تفصل فيها بعد ! .

وهذه القضية ليست سوى مثال لموجة الشذوذ والإغراب فى الثقافة والأدب الأوربيين فى الأعوام الأخيرة . . .

فالحياة الثقافية فى أوربا خصبة جداً . . . وخاصة فى فرنسا ولكن الجنوح لكل ما هو غير مألوف سواء فى السياسة أم الثقافة . . . أمر مألوف اليوم فى تلك الميادين . . .

ويبدو أن الفلسفات التقليدية لم تعد تكفى . . . وأبرز مثال على ذلك جماعات « البروفوك » فى هولندا أيضاً . . . وهم يمثلون نوعاً من المذهب السياسى والثقافى معا . . . الذين يؤمنون أن الثقافة ليست شيئاً محكوماً بقاعدة أو هدف . . . فلا هى ثقافة من أجل الثقافة ولا هى ثقافة من أجل الحياة . . . بل هم متمردون حتى على الشكل الذى تقدم فيه الثقافة فيطبعون كتبهم ومجلاتهم بالعرض . . . بعكس الطريقة المألوفة ! .

وإذا كانت منابع الثقافة الكلاسيكية لم تعد تروى ظمأ المثقفين الأوربيين فإنك ستجدهم يبحثون عن الجديد ولو فى الشرق . . . والصين على ذلك نراها قبلة كثير منهم الآن . . . السياسة الصينية والأدب الصينى والفن الصينى والأزياء الصينية .

وأبرز مظاهر الإغراب فى الأدب فى إنجلترا مثلا . . . هو استمرار ازدهار ما يسمونه بالرواية الجديدة . . .

وخلال إقامتى هناك كان الكتاب الذى يدور حوله الحديث فى المجالات الأدبية والصحفية كتاباً للكاتبة « مارجريت فوستر » واسمه « رحلات مود بتستان » وهى حكاية أم مطلقة عليها أن تزور ابنتيها المتزوجتين وابنها الفنان الذى لم تره منذ سنوات . . .

وكلما زارت واحدة تنتهى الزيارة بمصيبة ، والمصيبة تكشف فى كل

مرة عن جانب من نفسية وأعماق الأم . . .

والرواية مليئة بالأنين والشجن والتنهدات والعبارات الغريبة غير المفهومة مثل :

ذراع الفتاة أطل من كومة القاذورات . أمسكت بالمعصم فخرج معي ! ! والدنيا تجرى بسرعة لفرقعة نووية ولا توجد حوائط ثلجية تمنع الكارثة ومع ذلك فإنى أعرف أنى قادرة على الجرى كقاطرة سكة حديد تنزلق على قضبان من معدن مريخى ! ! » . . .

وقد صدر منذ فترة كتاب يجمع حياة وأعمال مجموعة من كتاب الرواية الجديدة هم ج . أ دولى ، وبنلوب شاتر . . . وأنا كافان . . . وبن ستوليفوس ، وستانلى كراوفورد . . . ومارجريت فوستر . . . بقلم الناقد الكبير روبرت ناى . . .

وكلنا ما زال يذكر مدرسة السخط وصاحبها جون أسبورن الشهير مؤلف مسرحية انظر إلى الخلف فى سخط . . .

ما مصير تلك المدرسة التى كان من أقطابها أمثال كنجسلى أميز وجون برين أيضاً ؟ وما مصير جون أسبورن ؟ . . .

صرح أسبورن ذات مرة للاوبزرفر البريطانية أنه لم يعد واثقاً أن ذوق الجمهور معه ! .

ويبدو أن تصريحه هذا كله كان علامة على ما أصاب جيل الساخطين الذين ظهروا على مسرح الأدب الإنجليزى منذ حوالى عشرة أعوام .

والحقيقة أن بعض هؤلاء الكتاب انزوى من دنيا الأدب وارتبط بعالم السياسة بالذات فيما يسمى باليسار الجديد فى بريطانيا . . .

وقد هاجم أوسبورن هذا الاتجاه من جانب بعض الساخطين قائلا إنه لا يوافق على « انتماء » الساخط لشىء ما ! ! .

وقال أيضاً إنه انضم إلى لجنة المائة التى يرأسها برتراند راسل ولكنه لم يكن ينتمى إليها بالمعنى الحقيقى .

ووصف « غضبه وسخطه » الذى عبر عنه فى روايته بأنه كان شيئاً ذاتياً يعبر عن إحساس بالصدمة لحظتها ، وأنه سجل مشاعره بسرعة . فياسية فقد كتب « انظر إلى الخلف فى سخط » فى تسعة أيام فقط ! .

ولكن أوسبورن لم يكف عن الكتابة فقد عكف على كتابة ثلاثية من ثلاث مسرحيات أولها باسم « الفندق فى أمستردام » وهى حكاية جماعة من الناس تجرى من شخص يخافونه حتى يصلوا إلى فندق يجلسون فيه ويتكلمون . وتنتهى المسرحية وهم يتكلمون ! .

والثانية مسرحية عن ممثلة تحاول أن تكف عن التمثيل . . . وتنتهى المسرحية وهى ما زالت تحاول ولا نعرف أن كانت قد نجحت أولا ؟

وقد استقبل النقاد مسرحيتى أوسبورن الجديدتين ببرود أصابه بخيبة أمل شديدة . وأعلن أنه سينزوى فى بيته يزرع حديقته ويتعلم كيف يصطاد السمك . . .

وفى ألمانيا الغربية حدثت محاولة لإحياء أدب فرانسوا ساجان الذى ذبل تقريباً فى فرنسا وأوربا كلها . . .

فآخر صيحة « ساجانية » هناك كانت لكاتبة جديدة طالبة فى المدارس الثانوية اسمها أنبتا كنجر عمرها ١٩ سنة . كتبت رواية اسمها « واحدة وثمانية » . . .

وهى قصة مثيرة وصريحة جداً لفتاة جميلة خرجت فى رحلة لمدة أسبوعين مع ثمانية رجال يتراوح سنهم ما بين الخمسين والستين وكلهم يغازلها ويراودها عن نفسها . . .

وقد لاقت الرواية إقبالا كبيراً . . . وبادرت مجلة « كونكريت » وهى مجلة ألمانية للشباب بتعيين طالبة الثانوى محررة بها بمرتب ألف ومائتى مارك أى حوالى ١٣٠ جنيهاً مصرياً . . .

والرواية مليئة أيضاً بالعبارات الغريبة مثل :

« النمل يزحف على رمل الخيمة . . . صغيراً . . . وكبيراً أحياناً فى حجم البيضة وهو يلسع ساقى بينما أسنانه صخرية تنغرس فى لحمى الذى باش فى فضاء مثلج . . . وعينا العجوز ترقبنى خلف نجمة مرتعشة! ! . .

ولقد قابلت فى فرانكفورت الكاتبة أنيتا : وسألتها عن معنى هذه الكلمات والعبارات التى ملأت بها روايتها . . .

فضحكت قائلة إنها نفسها لا تفهم معناها . . . وإنما فقط أحست أنها تريد أن تكتبها بدافع إلهام داخلى فى أعماقها . . .

وقالت لى إن الكتاب يحكى تجربة خاصة مرت بها . . . وأنها سجلتها فقط عند ما شعرت برغبة فى تسجيلها . . .

ونفت بشدة أن يكون لديها أى هدف مما كتبت . . .

* * *

وليس الطابع العام للثقافة والأدب فى أوربا هو الإغراب والشذوذ . . . فما زالت مصادر وأساليب الثقافة التقليدية بخير . . .

الإغراب والشذوذ هو انعكاس طبعاً للتمرد على الطريق المسدود الذى تسير فيه الرأسمالية الأوربية وتصر على السير فيه . . . وهو أيضاً انعكاس لأزمة الشعور بالاغتراب الذى يعيش فيها المواطن الأوربى فى عصر ثورة التكنولوجيا الهائلة . . . وهو شعور أشبه بشعور الضآلة الذى ينتاب القروى عند ما يقف أمام قاعدة ضخمة لإطلاق الصواريخ مثلا . . .

فى إنجلترا تطبع كتب الثقافة والأدب الكلاسيكية وتباع كل يوم . . .

ومسرح شيكسبير يعمل طول العام بلا انقطاع . . . فشيكسبير أحد معالم بريطانيا . . . وما زال المسرح البريطانى أخصب من أى مسرح فى أى بلد أوربى . . . فى لندن وحدها ٢٥ مسرحاً يمتلىء معظمها بالمشاهدين . . .

ومع ذلك فإنه حدثت فى الشهور الأخيرة أزمة لبعض المسارح فى

ألوست أند ، واضطر مسرح كامبريدج إلى أن يتحول إلى دار للسينما أبعد أن أغلق لمدة خمسة شهور وتحمل أصحابه واحداً وعشرين ألف جنيه خسارة ! .

وبدأت السينما بعرض فيلم الراهبة الفرنسى الذى كان قد فاز فى مهرجان كان ثم منع وزير الثقافة الفرنسى عرضه أو تصويره وأخيراً سمح به . . . ويضرب الأرقام القياسية فى باريس وسينما كامبريدج الجديدة ! .

ولم تنجح فى لندن مسرحية « الدرس » ليونسكو برغم أن مخرجها كان جوهان فيلنجر وهو واحد من أشهر مخرجى المسرح البريطانى . . .

وفى إنجلترا مسرح فى كل مدينة بل مسارح . . . وفى كل القرى توجد دار للسينما — وبعضها فيه مسرح . . .

ولقد شكا الناس فى الريف والمدن أن الفرق الموسيقية الكبرى التى تعزف فى البرت هول فى لندن لا تزور تلك القرى والمدن . . .

فأصدر مجلس الفنون فى بريطانيا قراراً بتنظيم ما يشبه قوافل الثقافة للمدن والأقاليم . . . فتسافر تلك الفرق الشهيرة وتقدم حفلات بثمن رخيص . وقد حضرت إحدى تلك الحفلات فى أدنبرة مقابل شلن وستة بنسات نظمتها الجمعية المركزية للرعاية الاجتماعية . . .

* * *

هبطت مطار لندن يوم ٨ مايو . . .

بعد أيام قليلة اشتعلت الأزمة فى الشرق الأوسط ...

وجدت نفسى جنديا مع اتحاد الطلبة العرب . . . وكل العرب فى لندن وكل الإنجليز الشرفاء فى إنجلترا . . . نخوض معركة . . .

طفت أنحاء إنجلترا . . . من لندن إلى ويلز إلى إسكتلندة . . . أتحدث مع الإنجليز عن العدوان ...

وبرغم أن أيامى فى لندن كانت أياماً نضالية إلا أن ملامح الشعب الإنجليزى والحياة فى ذلك البلد المتحضر . قد تركت انطباعات عميقة . . . فى نفسى . . . حتى إنه إذا حدث وعملت مراسلا صحفيا فى الخارج لاخترت إنجلترا بلا تردد ! . . .

لندن مدينة مفتوحة القلب

نزلت من القطار فى محطة برمنجهام . . .

لم أجد أحداً فى انتظارى كما كان متفقاً عليه . . . فاتجهت إلى نقطة البوليس فى المحطة الكبيرة . وقلت للكونستابل : « أرجو أن يساعدنى أحد لمعرفة عنوان رضا نمر الطالب المصرى فى جامعة برمنجهام ! » .

أومأ الكونستابل برأسه فى أدب . . . ودعانى للجلوس . . . وأجرى اتصالا تليفونياً بالجامعة .. . ثم كتب العنوان فى ورقة أمامه . . .

تأهبت للانصراف ويدى ممدودة إلى الكونستابل لآخذ العنوان . . .

ولكنه فاجأنى بقوله :

« آسف . . . لا بد أن نتصل بمستر رضا أولا ، ونستأذنه فى إعطائك عنوانه ! ! » .

قلت فى دهشة :

« لماذا ؟ » . . .

رد علىّ فى دهشة أكبر . . .

— « ربما يا سيدى يكون غير راغب فى أن تتصل به ! ! » . . .

إلى هذا الحد يحترم الإنجليز الحرية الشخصية . . . فى بلادهم فقط طبعاً ! ! . . .

وإلى هذا الحد هم مؤدبون . . . إن الكونستابل بعد أن استطاع الاتصال بصديقى رضا وحصل على موافقته « بإعطائى عنوانه . . . أصر أن يرافقنى واحد من رجال البوليس بالنقطة إلى البيت ليرشدنى إلى الطريق بعد أن عرف أن هذه أول مرة أزور فيها المدينة الكبيرة . . .

وهذا الأدب الإنجليزى معروف ومشهور وقد يصل إلى حد النفاق . . أو ما يسبب لنا نحن الشرقيين الضيق . . .

تدفع ثمن تذكرة الأوتوبيس للكمسارى فلا بد أن تقول له من فضلك وأنت تناوله الثمن . . .

يرد عليك قائلا شكراً . . .

يعطيك التذكرة وهو يقول . . . من فضلك . . .

فترد عليه قائلا أشكرك . . .

وربما أحياناً يكون الرد أشكرك كثيراً جداً إذا كان قد تجشم مشقة إعطائك الفكة ! ! » . . .

ولا ينسى الكمسارى أن يرد فى ابتسامة : « عفواً . . . » . . .

وهكذا مع كل راكب وراكبة . فى كل ساعات الليل والنهار . . . زحام أو غير زحام . . . دون ملل أو كلل على الإطلاق . . . وبطريقة مهذبة ودودة . . .

ولكن الذى أعجبنى فى إنجلترا . . . هم الناس الاجتماعيون . . . والذين يمكن مصادقتهم بسهولة وبسرعة . . .

عند ما كنت فى مطار لبورجيه بباريس أستعد لركوب الطائرة إلى لندن . . . كانت فى نفسى غصة ومرارة الفراق وأنا أودع الأصدقاء الذين

عشت معهم أياماً طويلة . . .

قلت لروجيه سيرا مدير مجلة التريبيون . . .

« إن كرمكم الشديد عوض على شعورى بانعزالية الفرنسيين ! » .

والحقيقة أنه لا روجيه سيرا ولا أريك رولو ولا كلود استيه . . . ولا سائر الأصدقاء الفرنسيين الذين رأيت من خلالهم فرنسا وتعلمت الكثير . . . كانوا يمثلون الشعب الفرنسى على حقيقته . . .

فمن خلال الاحتكاك بالفرنسيين . . . يمكن القول دون مبالغة إن الفرنسى العادى رجل انعزالى . . فردى شديد الفردية . . . ليس عشرياً » . ربما كان ذلك لأن بلاده شهدت أول ثورة ناجحة انتزعت للفرد كيانه من أنياب الذين داسوه وأذابوه فى كيان واحد مع الأرض التى يفلحها من أجلهم لقرون عديدة . . .

وربما دخل فى تشكيل الفردية والانغلاق نوع من الغرور والشعور بالماضى المجيد من أيام روبسبير ونابليون الذى جعل من الفرنسيين رسلا لنشر مبادئ الثورة الفرنسية فى أرجاء أوربا التى كانت تغط حينذاك فى متاهات العصور الوسطى . . .

وربما للمودة والأزياء . . . وللنساء . . . ولآثار التاريخ . . . وللحب واللهو والبيجال . . .

إذا سألت فرنسياً عن الطريق . رد عليك — إن رد — بطريقة تلغرافية . . . إذا طلبت كوب ماء . . . نظر إليك الجرسون فى استنكار . . . وإذا لم تدفع بقشيشاً نظر إليك باستنكار أكثر . . . وطالبك جهاراً نهارا ! ! . . .

فى إنجلترا . التى بدت لى من الجو . . . مجموعة من البيوت حولها حدائق كبيرة . . . إذ الحقيقة أن الجزيرة مزدحمة بالمدن والقرى التى هى مدن صغيرة . . . والحقول والحدائق والمراعى والنبات . . . تحف بتلك المدن.

والحدائق ظاهرة مميزة للجزيرة البريطانية . . .

فمدينة لندن لا تبدو كما تتصورها مخيلتنا من روايات شارلز ديكنز عن المدينة الصناعية المزدحمة التى تتلاصق بيوتها وتضيق شوارعها وحاراتها ويملأ الدخان والضباب سماءها . . .

إنها مدينة أنيقة . . . وجميلة . فى قلب المدينة نفسها تجد أحياء بكاملها . . . متسعة « وشرحة » . ولا تصدق أنك فى قلب المدينة . هذا غير الحدائق الواسعة التى تمتد ألوف الأفدنة . . .

« لولا هذه الحدائق كنا نختنق » . . . على حد قول المستر فيلد كبير مهندسى المبانى بضاحية باتل . . .

صحيح أنه توجد أحياء فقيرة فى لندن مزدحمة بالسكان وقذرة — والمسألة هنا نسبية — وهى التى يسمونها « سلمز » وهو تعبير يشبه « عشش الترجمان » عندنا .

وتزدحم الشقق فى تلك الأحياء بالناس . . .

ولكن الحكومات المتتالية فى بريطانيا . . . تهدم هذه الأحياء واحدة وراء الأخرى ، وتبنى مكانها عمارات جديدة ... ولكن لا ينتظر القضاء نهائياً على عشش الترجمان الإنجليزية قبل عشر سنوات ! .

والطابع الذى يثير دهشة الزائر الأجنبى . . . هو الهدوء التام فى الشوارع السكنية بالمدينة ، لا تجد أطفالا أو غلماناً يلعبون . . . فى الشارع . . . لأن هناك نوادى خاصة للأطفال . . .

ولا باعة جائلين يصيحون ويزعجون السكان أو المارة . . . لأنه توجد محلات كافية تلبى الطلبات بالتليفون إذا ما كسلت ربة البيت عن التوجه بنفسها . . .

وداخل كل مسكن صمت وهدوء غريبان .. وأبواب العمارات تغلق من الساعة الثامنة مساء . . . ومن يريد زيارة أحد يضغط على زر على الباب مكتوب عليه اسم صاحب الشقة . فيرد عليه بميكروفون صغير . . وإذا وافق على زيارته يفتح له الباب بالضغط على زر خاص

موجود فى كل شقة ! ! .

الصخب والضجيج والحيوية كلها التى تتناقض مع كل الذى تسمعه عن البرود الإنجليزى موجود فى شوارع لندن وشوارع أى مدينة .

وأهم الشوارع التى تتركز فيها الحياة فى لندن . . . شارع بيكاديللى الشهير فى روايات أرسين لوبين وميدان بيكاديللى وشارع أكسفورد . . . وميدان الطرف الأغر . . .

فى هذه الأماكن بالذات يخيل إليك أنك فى برج بابل . . . ناس من جميع الجنسيات من الشرق والغرب . يمشون إلى اتجاه معلوم . . . أو يتسكعون لمجرد الفرجة على بعضهم البعض ! ! .

وفى تلك الأماكن ما يستحق الفرجة فعلا . . .

أولا : لو تصورنا تركيزاً لأكبر « تكتل » من الفتيات الجميلات فى العالم . . . لكان فى بيكاديللى وبيكاديللى سيركس . . .

وأحدث مودات العالم . وأجملها . . . وأغربها .

وإذا ما وقفت على الرصيف تتأمل هذا الحشد من أرشق بنات الدنيا لخيل إليك أنهن هبطن من كوكب آخر . . . واشعرت بكراهية شديدة للموت لأنه يمكن أن يختطف ذلك الجمال ويحول تلك الوجوه النضرة والأجسام الهيفاء والسيقان الرائعة — التى تبدو كما لو كان المينى جوب والميكروجوب قد خلقا لها خصيصاً — سيحول كل ذلك إلى تراب ! ! .

والذى يجذب البنات إلى بيكاديللى سيركس هو تمثال « أيروس » إله الحب والجنس . . . ويقفن الدقائق والساعات الطوال يتأملن فيه . . . ويصحبن أصدقاءهن أحياناً ويتكلمون ويتعانقون . . . وأحياناً يبلغ بهم الحماس مداه . . . فيخلع البعض شباناً وبناتاً ثيابهم ويستحمون عراة فى ماء النافورة بجانب التمثال . . . وهنا يتدخل البوليس لاحترام حياء الآخرين الذين خدشتهم رعونة الشبان والشابات ! ! .

وبيكاديللى سيركس يزدحم أيضاً لأنه المدخل إلى حى « السوهو » .

بيجال لندن . وأيضاً حى الجريمة المشهور فى كل الروايات البوليسية فى العالم . .

فى الحى دور السينما التى يسمونها فى باريس « بسينما الخنازير » وهى دور تعرض أفلاماً جنسية . أغرقت بها اليابان والسويد والدنمرك العواصم الأوربية . . .

وهناك نوادى يسمونها نوادى ما وراء البحار . . . وفيها تجد الفتاة التى ترافقك وتذهب معك إلى البيت مقابل « عشوة » أو بعض كئوس الشراب وهى نواد مخصصة للبحارة والأجانب من وراء البحار . . .

وكثيراً ماتحدث معارك على أبوابها لأن الإنجليز ممنوعون من دخولها عند ما يكون هناك صيد ثمين من ركاب باخرة جديدة أو بحارتها ! .

ومن بيكاديللى سيركس أيضاً . تسير خمس دقائق فى شارع ريجنت فتجد نفسك فى شارع أكسفورد . وهومثل شارع ٢٦ يوليو عندنا .

ويلفت النظر فى الشارع استماعك إلى ناس يتحدثون اللغة العربية كثيراً . وباللهجة المصرية .

هنا ما يسمونه « جنون الشراء » . . . ولن يخلو محل واحد من عشرات المصريين . . . ولن تجد فيه كويتيين أو سعوديين . . . لأن هؤلاء يشترون من أماكن أخرى فى حى ماى فير وبارك لين .

والأسعار رخيصة فعلا فى أكسفورد ستريت وخصوصاً فى الأوكازيون . . . الذى تجرى فيه تخفيضات تهبط بثمن السلعة إلى النصف والثلث أحياناً . . . وفى الأوكازيون تحس بالمنافسة القاتلة بين المؤسسات الرأسمالية بعضها البعض . . . فالكل يتفنن فى العرض والإعلان والتخفيض بطريقة تجعلك تحس أنك كنت فريسة طول العام لمجموعة من اللصوص كانت تبيع لك الحذاء مثلا بخمسة جنيهات وتعرضه الآن بجنيهين ! .

ومعظم المحلات الكبيرة فى الشارع « جون لويس » و « سى آند إيه » . . . و « سلفردج » ، أصحابها من اليهود الصهيونيين .

حتى إن محل سلفردج أقام قبل العدوان مباشرة أسبوعاً لبيع السلع تخصص الأرباح فيه لإسرائيل . . . وفى كل ليلة كان يقدم فى الصالة فى نفس المحل رقصاً شعبياً إسرائيلياً كما لو كانت تلك الدولة المكونة من شذاذ الآفاق فى أوربا وأمريكا لها تراث تاريخى فولكلورى .

و إنك لتجد كثيرين من الإنجليز الشرفاء يخطبون ضد هذا و يندون به فى ميدان الطرف الأغر . . . وفوقهم يرتفع عالياً تمثال نلسن أميرال البحر الإنجليزى الذى هزم أسطول نابليون — وترى الناس يتحمسون للخطيب الذى يهاجم العدوان ويكشف أذناب الصهيونية . . . فتحس أنك فى عالم آخر غير عالم هؤلاء الإنجليز السطحيين والذين تضحك عليهم صحف الإثارة كل يوم . . . فيصطفون فى الشوارع يصفقون لشرذمة من الشبان المتطوعين للتوجه إلى إسرائيل كأنما هم ذاهبون للدفاع عن الشعب الإنجليزى نفسه .

ولكن هذا العالم الآخر عالم صغير جداً . . .ولكن عزاءنا أنه يكبر يوماً بعد يوم . . .ويتكاثر الذين سبقهم أمثال اللورد راسل إلى إدراك حقيقة العدوان الإسرائيلى . . .والقضية العادلة التى تدافع عنها الشعوب العربية . . .

حكايتان :

فنان فلسطيني . . والملكة المزعومة فى لندن

فى جو من الحماس الشديد إزاء التطورات الأخيرة فى الشرق الأوسط وقرار الرئيس عبد الناصر باسترداد حقوق مصر الشرعية فى خليج العقبة . . .

افتتح فى لندن معرض الرسام الفلسطينى إسماعيل شموط بنادى اتحاد الطلبة العرب فى شستر فيلد جاردنز بلندن يوم ٢٢ مايو الماضى . . .

وقد حضر حفل الافتتاح جميع السفراء العرب فى لندن ما عدا سفيرى السعودية وتونس وأكثر من مائة صحفى ومندوب لوكالات الأنباء ومئات من الطلبة العرب والإنجليز والفنانين . . .

وقدم الفنان الفلسطينى الشاب هو وزوجته الفنانة هى الأخرى ٤٩ لوحة فى المعرض الذى ملأ قاعتين كبيرتين من النادى الكبير الذى كان قصراً للملك فاروق السابق عند ما كان أميراً يتعلم فى لندن . . .

وهذه هى المرة العاشرة التى يقدم فيها الفنانان الفلسطينيان معرضهما فى العالم فى مدن أمريكا والاتحاد السوفيتى وتشيكوسلوفاكيا والبلاد العربية . . .

وربما كان التأثير الكبير الذى تتركه لوحات شموط أنها ليست لوحات تقليدية تمثل مأساة فلسطين فى شكل اللاجئين وراء الأسلاك الشائكة وحالة التشرد التى يعانونها . . .

إن ذلك الجانب التقليدى موجود فى بعض اللوحات . . . ولكن فى رأيى أن أروع ما فى المعرض . . . وما يثير الانتباه هو ذلك الأسلوب الجديد الذى عبر به الفنان الفلسطينى عن « النكبة » برسم لوحات تبين حالة سكان فلسطين المحتلة قبل الاغتصاب الصهيونى – فثمة لوحة اسمها

يافا عروس البرتقال . . . فتاة عربية جميلة تحمل سلة من البرتقال ، وبرغم الابتسامة العريضة على وجهها إلا أنك تستشف لمحة الحزن والأسى لما حل بفلسطين وثمة لوحة أخرى اسمها الربيع تمثل فتيات يرقصن رقصة شعبية ، وأطفالاً من حولهن يلعبون ويتواثبون فى شقاوة . . .

وهناك لوحات كثيرة من هذا النوع تسترجع فى النفس أيام السلام فى فلسطين قبل المؤامرة الصهيونية . . . ويستطيع المشاهد لها أن يتمثل اللوحات الأخرى التى تمثل المأساة نفسها بشكل مباشر مثل لوحة فلسطين على الصليب . . . التى يرمز الفنان فيها لفلسطين بامرأة فى زى أبيض مصلوبة ورجل متكوم إلى جانب الصليب رمزاً إلى ما تبقى من فلسطين بعد صلبها ، ثم طفل محاط بالزهور وفى يده حمامة سلام وإلى جانبه كتاب وبندقية كأنما يريد الفنان أن يقول إن الشعب وهو يريد السلام لكن ذلك لن يصرفه عن انتزاع حقه بالقوة . . . .

وثمة لوحة لامرأة حزينة تتساءل ما إذا كان زوجها سيعود أم لا . . . ولوحة تمثل عروساً وراء الأسلاك الشائكة . . . وغيرها كثير ترمز إلى طريق التحرير وهو السلاح . . .

وأكدت تمام زوجته قدرتها على استخدام أسلوب المدرسة الحديثة فى ألوان الماء والزيت والطباشير . . . وقدمت وحدها ٢١ لوحة فى المعرض ويزور المعرض كل يوم متفرجون إنجليز وباكستانيون وصوماليون ومواطنون من أمريكا اللاتينية . . .

أما الحادث الطريف .

فقد جرى فى ميدان « تراقلجار » ذات يوم عند ما تجمع الناس فى مظاهرة ضد حرب فيتنام والانقلاب العسكرى فى اليونان ؛ فقد صعدت امرأة تشبه ملكة إنجلترا تماماً . . . وترتدى تاجاً أبيض مثلها وفستاناً طويلا . . . وفى نفس جلال ووقار الملكة أمسكت بيدها ورقة طويلة أنيقة . . . وأخذت تقرأ فى صوت يليق بالملكات . . .

أنا اليزابيث ملكة بريطانيا العظمى . . . قررت أنه آن الأوان لأن أنزل بنفسي بين شعبي فأشاركه حتى مظاهراته السياسية . . . فما عاد ممكناً أن يستمر الملوك وهم معزولون عن شعوبهم ! . . .

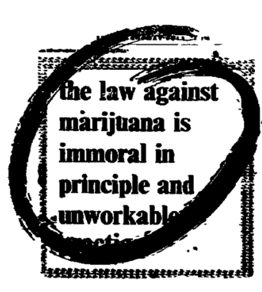
ومن أجل هذا فإنى أقول لكم إنى أقف مع حلفائى الأمريكان فى حربهم فى فيتنام . . . لأنى أرى أن ذلك لاعتبارات إنسانية لا تستطيع « الدهماء » فى الايست أند إدراكها ... ومن ناحية أخرى لا تنسوا يا أحبائى أبناء شعبي العزيز . . . اعتبارات الدولار . . . وهى فى النهاية تؤدى إلى الاعتبارات الأولى « الإنسانية » ! ! .

وأنا أيضاً . . . لم أقل كلمة واحدة ضد انقلاب اليونان . . . لأن اليونان تربطها بنا علاقات تاريخية قديمة . . . ولا تنسوا أن جيش جلالة الملك وسلاح طيرانه هما اللذان حميا وحدة الشعب اليونانى عام ١٩٤٤ ضد خطر الشيوعيين الذين أشعلوا حرباً أهلية . . . ويومها أيضاً استعنا بحلفائنا الأمريكان « للتشطيب » على تلك الحرب الأهلية ! . . .

وأنا أيضاً . . . يا شعبي العزيز لا بد أن أقول كلمة فى مواجهة الاحتجاجات الشديدة لرفع الأسعار المستمر . . . إن ذلك طبيعى لأنه دليل على الرخاء؛ فمعناه أن الناس يستطيعون الدفع باستمرار ما دامت السلع تختفى من السوق دائماً برغم رفع الأسعار ! ! . .

واستمرت الملكة المزعومة تلقى بهذا الخطاب . . . والناس يجأرون بالضحك والصفير والاستحسان لسخرية « الملكة » من سياسة الحكومة البريطانية . . . حتى انتهت « الملكة » من إلقاء خطابها الذى استمر ثلث ساعة ثم عادت المظاهرة تمشى فى شوارع لندن تعلن احتجاج الشعب ضد حرب فيتنام . . . وانقلاب اليونان و « الملكة » تتصدرها . . .

وكان عدد المتظاهرين لا يقل عن عشرين ألفاً . . . والبوليس البريطانى يحرسها طوال الطريق . . .



دعوة صريحة إلى إباحة الحشيش ! !

أيام العدوان وما بعدها ... نافست عناوين الصحف عن الحرب حكاية مطرب إنجليزى من مطربى فرق الخنافس وأشباهها التى ازداد انتشارها فى إنجلترا زيادة مخيفة ... والمطرب المذكور كان قد ضبط هو وبعض أصحابه يدخنون « الحشيش » وقدم البوليس الإنجليزى المطرب إلى المحاكمة بتهمتين: تعاطى المارجوانا وهى اسم الحشيش ... وإدارة بيته الفاخر فى حى شلسى « كغرزة » للتدخين ...

وقامت قيامة الصحف البريطانية احتجاجاً على تقديم المغنى إلى المحاكمة ... وفى نفس الوقت الذى كانت تتجمع فيه بعض المظاهرات أمام سفارة إسرائيل لتعلن تعاطفها مع الصهيونية كانت هناك مظاهرة من مئات الفتيان والفتيات تقف أمام المحكمة تحمل لافتات احتجاج على محاكمة المطرب وزملائه ! .

وارتفعت صيحات الفتيات عند ما خرج المغنى يتقصع فى مشيته بصحبة رجال البوليس من قاعة المحكمة إلى السجن بعد الحكم عليه بستة شهور .. كانت الفتيات ذوى « المنى سكيرت » يصحن فى لهفة : « أوه ..

.. هورا... » . وهو نداء لا يهتف إلا للأبطال ! . . .

وإزاء « ضغط الرأى العام » الذى توجهه صحافة الإثارة . . . تقرر فى الاستئناف بعد يومين الإفراج عن المغنى ومدير أعماله نظير كفالة مالية عشرة آلاف جنيه إسترلينى لكل منهما . . . دفعاها على الفور وخرجا محمولين على الأعناق ! .

ومنذ تلك القضية تدور فى الصحف أحاديث طويلة وعريضة عن موضوع المخدرات . . . وخاصة المارجوانا . . .

وفيما يبدو أن هناك مجموعة أو « منظمة » كرست نفسها « للكفاح » من أجل إباحة الحشيش اسمها منظمة « سوما » لأنها دفعت حوالى ألف جنيه استرلينى قيمة نشر صفحة كاملة فى جريدة التيمس البريطانية وهى المشهورة كذباً بوقارها وجديتها . . . تحت العنوان المثير التالى : القانون الذى يحرم تدخين الحشيش قانون غير أخلاقى من ناحية المبدأ غير عملى فى التطبيق ! ! . .

واستهل ناشرو المقال حديثهم بالاستشهاد بعبارة طويلة للفيلسوف المشهور « سبينوزا » معناها أن كل ممنوع مرغوب . . .

ويقرر المقال الحقائق التالية :

* أن تدخين الحشيش أصبح الآن منتشراً فى بريطانيا فى أوساط الجامعات والكتاب والأدباء والمدرسين والأطباء ورجال الأعمال والموسيقيين والعلماء بل والقسس ورجال الدين !

كما أن تدخين الحشيش يمثل تراثاً اجتماعياً ودينياً لمئات الألوف من المهاجرين إلى بريطانيا !. لما للحشيش فى « إثارة شعور غامض فى النفس يربط الإنسان بالكون العظيم حوله » ! .

* أن البوليس البريطانى يقوم بحملة « انتهاك » للحريات العامة إذ يطلب من الناس أن يبلغوا عن جيرانهم الذين يدخنون الحشيش ويفتش الناس فى الطريق العام . . . بل ويستخدم الكلاب البوليسية فى تعقب

المدخنين . . . الذين يزج بهم فى السجون ! .

* أن كثيراً من الأطباء الإنجليز قد أصدروا تقارير وشهادات تفيد أن الحشيش ليس له تأثير على الصحة العامة . . . بل إن خطر الخمور بل والسجاير أشد من خطر تدخين الحشيش نفسه الذى فقط يترك أثراً فى نفس متعاطيه هو « الإعجاب بالألوان والموسيقى والشعور بالراحة والسلام والتخلص من التوتر والاندماج فى الكل » ! .

ويمضى المقال فينشر شهادات عديدة لعدد من الأطباء الإنجليز نشروها فى كتب أو فى مجلات طبية كمجلة لانست المشهورة . . . يقولون فيها مثلا إن مشكلة الحشيش قد خلقت بسبب تضليل الرأى العام عن أضراره الوهمية ! . وأن من يتعاطى الأفيون فى الغالب يتعاطاه لوجود سوق سوداء بالنسبة للحشيش وأننا لو أبحنا الحشيش لقل تعاطى الأفيون المحقق ضرره . . . و . . . كلام كثير أغلبه لبس فيه حتى النكهة العلمية برغم الأسماء اللامعة التى أصدرت مثل تلك الشهادات . . .

وقد وقع المقال الطويل العريض أكثر من ستين شخصية معظمهم من الأطباء وأساتذة الجامعات والكتاب ومن بينهم اثنان من هؤلاء المهاجرين إلى بريطانيا مثل طارق على وميشيل عبد الملك من زعماء الطلبة والملونين .

ويطالب الموقعون أدناه بالمطالب التالية فى صراحة تامة ! :

* على الحكومة أن تسمح بتدخين الحشيش فى الأماكن الخاصة .
* وبالتالى يجب رفع الحشيش من قائمة المخدرات الحظرة الممنوعة .
* إحراز الحشيش يجب ألا يكون ممنوعاً ... وإذا مثلا وجدت كميات كبيرة يدفع محرزها غرامة عشرة جنيهات فى أول مرة ، وخمسة وعشرين جنيهاً فى أية مرة لاحقة بعد ذلك ! .

* يفرج حاليا عن جميع السجناء ضحايا قانون تحريم الحشيش .
* على الحكومة أن تشجع البحث العلمى فى مزايا ومضار المارجوانا ..

وبعد . . . فليس بعيداً بعد عامين مثلا أن يصدر مجلس العموم

البريطانى قانوناً بإباحة المارجوانا . . . ومن ثم تكتمل حلقات الحصار حول الشباب البريطانى الذى ما زال الكثير منه يناضل ضد سياسة حكومته فى المستعمرات.ومشكلة فيتنام .وحتى أثناء العدوان الإسرائيلى ...

فالحملة الجديدة لإباحة المارجوانا . . . فى الواقع . . . واحدة من الأسلحة الفتاكة التى تحاصر بها الاحتكارات البريطانية الشباب والشعب الإنجلزى كله . . . وهى أسلحة عديدة تبدأ من الصحافة والإذاعة والتليفزيون وفرقة الخنافس . . . والقرود . . . والشذوذ الجنسى . . . وأخيراً الحشيش.من عجب أن بريطانيا التى استخدمت المخدرات فى تخدير الشعوب التى استعمرتها حتى لا تقاوم استعمارها . .. تحتاج اليوم إلى تخدير شعبها هى ! ! . . .

ست ساعات يقطعها القطار فى باريس إلى جنيف ..
وست ساعات أخرى يقطعها من جنيف إلى ميلانو . .
وست أخرى من ميلانو إلى روما . . .
وفى الصفحات التالية سنقوم بجولة سريعة فى جنيف وإيطاليا . . . قبل أن يتحرك بنا القطار من روما إلى ميلانو فإلى جنيف ، ثم إلى فرانكفورت فى ألمانيا الغربية . . . والمسافة الأخيرة يقطعها القطار فى ثمانى ساعات . . .
ولا يمكن أن تشعر بالملل مهما طالت ساعات القطار . . . فثمة من حولك مناظر هى السحر بعينه ... دائماً . . .
كم يساوى المرء فى أوربا . . . إن خلا جيبه من النقود ؟ .

مفلس فى جنيف

جلست على مقعدى فى القطار الذى يغادر ميلانو إلى جنيف، فى العاشرة صباحاً .
قبل أن يتحرك القطار بربع ساعة ... خطر ببالى آن أحول الليرات الإيطالية التى معى إلى فرنكات سويسرية وماركات ألمانية . فقد كنت أنوى قضاء ليلة واحدة فى جنيف وأركب القطار إلى فرانكفورت فى التاسعة والربع من صباح اليوم التالى .
أعطيت النقود لصديقى مارسيللو سيريزى الذى كان فى وداعى ليحولها لى من صراف المحطة .
ولكن عقربى الساعة اقتربا من العاشرة وصديقى الإيطالى لم يعد حتى تحرك القطار .
اضطجعت فى مقعدى بالقطار أقرأ الصحف . . . وأنام . . . وأتفرج

على المناظر الجميلة . . . وأشرب الكازوزة . . . وأتحدث مع الناس وكل ما أملكه من نقود طار من جيبي ! ! .

لم يكن فى جيبي إلا بعض « الفكة » . . .

قلت لنفسى إنها ستدبر لى مصاريف القطار طوال الست ساعات « سفر » . . . وفى جنيف لى أصدقاء كثيرون سأقضى معهم الليلة حتى الصباح لأستقل القطار إلى فرانكفورت والحمد لله تذكرة القطار محجوزة فى جيبي منذ شهر .

وأنت فى أوربا تستطيع حجز تذكرة قطار من أى محطة كانت فى أى بلد آخر وأى خط ولمدة شهرين ! ! . . .

نزلت من القطار فى محطة جنيف فى الرابعة بعد الظهر تقريباً . . . وليس فى جيبي إلا فرنك توجهت على الفور إلى مكتب الإعلام المصرى لألتقى بصديقى « سيد فيظى » مدير المكتب . . . قالت لى السكرتيرة السويسرية الحسناء إنه ليس موجوداً . . .

وفى البيت لم يكن سيد موجوداً ولا زوجته .

أدرت قرص التليفون لصديقى البروفسور جورج دوبال أستاذ علم النفس فى جامعة جنيف . . . لم يرد أحد . . .

وعند ما اكتشفت أن صديقة سويسرية سافرت هى الأخرى فى عطلة . . . بدأت أشعر بالقلق .

وسرت فى الشارع الرئيسى متجهاً إلى بحيرة جنيف . . . البحيرة واسعة جميلة . . . والنافورة تقذف بمائها إلى ارتفاع مائة متر . . . ومن بعيد قمم الجبال تلمع فوقها الثلوج البيضاء . . .

وبدأت الشمس تغرب . . . ومن حين لآخر أدخل كابينة التليفون وأدير رقم تليفون صديق . . . فلا أجده ! ! .

هل هى مصادفات سينمائية ؟ ! .

من المحتم أن أسافر غداً إلى فرانكفورت فى الصباح . . . وثمة فى

مخزن الأمانات بمحطة جنيف ثلاث حقائب لى كنت قد تركتها قبل سفرى إلى إيطاليا وكان مفروض أن أدفع حوالى ١١ فرنكاً قيمة حفظها . . . ولم يكن بجيبي الآن سوى ثمانين سنتيما أى حوال تسعة قروش . . .

وزحف الليل . . . وأنا أتجول فى الشوارع مفلساً . . .

وبدأت أشعر بالجوع . . . ولعنت نفسى أنى ألقيت بكيس الطعام الذى كان معى فى القطار .

وشعرت بنفسى غريباً . . . ضائعاً فى هذه المدينة الكبيرة التى كنت فيها منذ ١٥ يوماً أشبه « بالملك » بين أصدقائى القدامى وأصدقائى الجدد .

ماذا آكل الآن ؟ .

لو كنت فى القاهرة لكفتنى التسعة قروش لأكلت وتجشأت وشربت سيجارة وكوباً من الشاى ، أما هنا فى جنيف فماذا تعنى ! ! .

رغيف الخبز بخمسة قروش . . ولا يوجد قط غموس بأربعة قروش . قطعة جاتوه بسبعين سنتيماً أكلتها . . ولكن شعورى بالجوع ازداد مع ازدياد القلق . .

على شاطىء البحيرة الواسعة مقاعد عديدة وأنيقة .. تجلس عليها وجوه شرقية عديدة . . كل واحد احتضن فتاة أوربية جميلة . .

منذ أسبوعين فقط كان عدنان شريح رئيس اتحاد الطلبة العرب هنا يشير إلى هذا وذاك قائلا .. هذا فلان وذاك علان .. أنفق على البنت اللى معاه دى مائة ألف فرنك أوخمسين ألف . . وساعة رولكس بخمسمائة جنيه استرلينى . . و . . وكثير ؛ بينما نحن محتاجون لمائة فرنك لطبع منشور للدعاية العربية ! ! وأنا محتاج إلى بضع فرنكات لآكل وأنام . . !

مشيت .. ومشيت على قدمى ، أحاول أن أتفلسف . . أمام تلك الكازينوهات العالمية . . تقف سيارات فارهة ، وسائقون ذوو كابات أنيقة كأنهم ضباط فى جيش استعراضات . .

ها هى الرأسمالية تقطف كل الثمار . . . وأنا . . . صائع ضائع ! .

وضحكت من نفسى . . . إن حالتى لا علاقة لها قط بالصراع الطبقى ! .

فمنذ خمسة عشر يوماً . . . كنت بصحبة صديقتى جلوريس . . . فى نفس هذه الأماكن نتغدى ونتعشى . . . ونلف وندور فى أنحاء جنيف بسيارتها الصغيرة حقاً . . . ولكنها سيارة على أى حال ! .

تعبت قدماى من المشى . . . وقبل منتصف الليل بقليل . . . بدأت أفكر . . . أين سأنام ؟

ويبدو أن طريقة سيرى فى الطريق كان يشيع فيها الارتباك والحيرة . . . فاعترضت طريقى فتاة من فتيات الليل باعتبارى غريباً شرقياً ! .

طافت بذهنى روايات السينما التى شاهدتها أيمكن أن أدخل فى مغامرة مع تلك الفتاة أستفيد منها قضاء الليل فى فراش دافئ ! ؟

سخرت من نفسى . . . وتقمصتنى روح المحقق الصحفى . . . فأخذت أثرثر مع الفتاة عن حياتها وأصلها وفصلها . . . حتى ملتنى وتركتنى وهى تمط بوزها آسفة على ما ضاع من وقت معى فى ثرثرة لا فرنكات من ورائها ! . .

سرت فى ميدان المحطة من جديد . . . وقفت أمام فندق « شاتو بريان » الذى أقمت فيه منذ أسبوعين . . . وتطلعت إلى الطابق الثالث . . هنا كانت غرفتى . . . سرير دافئ . . . وجهاز تدفئة . . . وتليفون . . . وراديو . . . وزجاجة شراب لمكافحة أى برد فى العالم ! . . .

أين أنا من هذه الغرفة الآن . . . يدى لا تكف عن العبث بالقرشين اليتيمين فى جيبى ! . . .

تملكنى خوف طارئ . . . أن يمسكونى تحرى فى الشارع . . . ولكنى ضحكت من نفسى . . . تذكرت أنى فى أوربا . . . حيث « لا يمسكون الناس تحرى ... مهما فعلوا من غرائب ... حتى إذا جلست على الرصيف أو وقفت أمام بنك فى الثالثة تتأمله بشكل مريب ! . . .

طالما لا يصدر منك فعل حقيقى لارتكاب جريمة لا تجرؤ أية سلطة على التعرض لك ، ولو وقفت طول الليل محملقاً فى نافذة غرفة مكتب رئيس الوزراء ! ! .بل إن البوليس يحميك إذا تعرض لك أحد وأنت تمارس هذه الحملقة وغيرها من التصرفات التى تبدو مريبة ! . . .

لو أننى كنت فى قرية مصرية . . . لدققت باب العمدة . . . أو بيت أى قروى . . . وليبادرنى على الفور بقوله اتفضل . . . ولتفضلت . . . أما هنا فلا أحد يقول اتفضل أبداً . . . ولا توجد مضيفة . . . ولا كرم شرقى . . .

لم يكن أمامى إلا محطة السكة الحديد . . . دخلت . . . كانت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل . . . أدهشنى أنى وجدت عدداً كبيراً من الناس فى بهو المحطة . . . برغم أن آخر قطار قد غادرها منذ نصف ساعة . . .

مضيت أتأمل الناس . . . عدد كبير من الشبان والشابات تكوموا فوق أمتعتهم الشخصية وهم يقومون برحلات على طريقة « ألهتش هايك» . . . ويقضون الليل فى المحطة حتى أول قطار .

ولكن ثمة عدد آخر . . . يتحرك فى المحطة مثلى على غير هدى . . . وقفت أمام محل سندوتشات وسجق ساخن فى المحطة . . . أتأمل الطعام والمشترين الذين يملكون نقوداً . . .

إلى جانبى وقف رجل يغمز لى بعينه ويبتسم . . . تحدثت معه . . . قص على قصة غريبة . . .

لقد قدم من باريس فى قطار عند الظهر . . . متتبعاً زوجته التى هربت منه مع عشيقها إلى جنيف . . . وعند ما ذهب إلى البيت طرده العشيق ولكمه فى وجهه ! .

وتطور الأمر بينهما إلى أن الزوج « رجا » العشيق أن يسمح له بقضاء الليل فى الشقة معهما . . . لأنه لا مكان له يقيم فيه . . . لا نقود معه

ولكن العشيق والزوجة تطل من خلفه رفضا . . . وطرداه . . .

— لماذا لم تبلغ البوليس ؟ . . .

هز كتفيه وقال :

— البوليس . . . لماذا ؟ . . . النتيجة هى الطلاق إذا أردت . . .

— ألا تريد الطلاق . . .

— ومافائدته ؟ ! . . .

— وما فائدة الزواج بهذا الشكل . . .

— لا فائدة ولا ضرر ! ! .

كان صاحبنا يتفلسف . . . وأ ثارنى حديثه . . . وفهمت أنه لا يعمل عملا محدداً . . . أحياناً يشتغل شيالا فى سوق الهال بباريس وأحياناً فى موانى نهر السين . . . وأحياناً لا شىء . . .

وقال فرناند لى بصراحة إنه ينوى قضاء الليلة فى المحطة . . . ثم يتجه إلى منزل عشيق زوجته فى الصباح ليجدد المحاولة . . . قانعاً بالحصول على أجر العودة إلى باريس هذه المرة ! . . .

شعرت « بكسوف » أن أقول لفرناند إنى أنوى أن أحذو حذوه هذه الليلة . . . استأذنت ومضيت أتجول من رصيف إلى رصيف . . . وأقف أمام المحلات التى امتلأت بالهدايا التذكارية السويسرية . . .

كانت خطتى شراء البعض منها لأصدقائى فى القاهرة . . . ولكنى الآن أكتفى بالوقوف أمامها متأملا متحسراً ! . . .

أردت دخول دورة المياه . . . صدمتنى حقيقة أنى يجب أن أدفع ثمانين سنتيماً للدخول. . . لم يبق أمامى إلا دورة مياه تنافس « الأدبخانات العمومية » فى القاهرة فى القذارة . . . لأنها مهملة لا يدخلها أحد ! . . .

انتقيت مقعداً على أحد أرصفة محطة جنيف . . . ومددت ساقاى ...
واستلقيت أفكر فى هذه الوحدة الغريبة غير الضرورية . . . قلت لنفسى مصيبتك أخف بكثير من مصيبة فرناند . . . ضحكت . . . ويبدو أن

ضحكتى كانت بصوت عال . . . لأنى سمعت صوتاً يقول لى : ستموت من البرد هنا . . .

اعتدلت . . . عامل من عمال المحطة . . . كان يبتسم فى وجهى . . . وهو ينصحنى كمن ينصح متشرداً أن أتجه إلى الدور الأول فى المحطة فى الطرف الجنوبى حيث المكان أشبه بقبو... شكرته واتجهت إلى أسفل. كان المكان دافئاً فعلا . . . وثمة مقاعد ... تمدد عليها متشردون مثلى . . .

فى الخامسة صباحاً . . . صحوت على صوت الباب يفتح . . .

كان على المقعد المقابل فتاة منكوشة الشعر ترتدى بنطلوناً . . . تدعك عينيها . . . وبرغم أنها كانت مستيقظة لتوها من النوم . . . وفى حالة بهدلة عمومية . . . إلا أنها كانت جميلة .

ابتسمت لها . . . وقلت صباح الخير . . .

فاجأتنى بسيل من الكلمات الغوغائية المقذعة تسب المكان وتقارن بينه وبين محطة هامبورج . . .

نفرت منها فأنا لا أحب الفتاة الغوغائية ! .

قمت . . . وشددت ملابسى وسويتها . . . وطالعت عناوين الصحف وأنا واقف .

خرجت إلى شوارع جنيف فى الصباح المبكر . . . جلست أمام البحيرة أتأمل الصباح يشرق .

كانت المشكلة التى تؤرقنى هى . . . كيف سأحصل على حقائبى من مخزن الأمانات قبل سفرى إلى فرانكفورت فى قطار التاسعة والربع . وكان حتماً أن آخذها معى فمن فرانكفورت سأتجه إلى القاهرة . . . فى الثامنة والنصف . . . اتجهت إلى مكتب الإعلام المصرى . . . علنى أجد صديقى سيد فيظى . . . لم أجده . . . وقالت لى السكرتيرة إنه لا يأتى قبل التاسعة . . .

وفى اللحظة التى فكرت فيها أن أقترض من السكرتيرة اثنى عشر فرنكاً

وأترك ورقة لصديق . . . دخل ساعي البريد وأخذت السكرتيرة تفرز الخطابات وأنا أجرب البحث تليفونياً عن أي صديق . . .

فجأة قالت السكرتيرة . . . وهي تناولني مظروفاً . . . هذا خطاب لك . . .

فضضت الخطاب بلهفة . ومنه تساقطت بين يدي عشرات الأوراق المالية ماركات ألمانية وفرنكات سويسرية وخطاب قصير من صديقي مارسيللو !

إن القطار قد فاته . . . ولما كان يعلم أني سأمر على صديقي مدير مكتب الإعلام المصري بجنيف . . . فقد بادر بإرسال النقود إلى على عنوانه . .

في أقل من ٢٤ ساعة . . . وصل الخطاب من ميلانو إلى جنيف . . . وبداخله النقود . . . والعنوان مجرد مدير مركز الإعلام المصري دون ذكر شارع أو حي أو رقم ! ! . . .

من يملك قرشاً يساوي قرشاً في أوربا ومن لا يملك قرشاً لا يساوي شيئاً . . . ولكن مع ذلك فإن تقدم الحضارة الأوربية يغفر لها الكثير من خطاياها ذاتها ! .

روما مدينة حلوة . . مفتوحة !

كانت السيارة تخرج من حارة ضيقة لتدخل فى أضيق منها ، شوارع ثعبانية أرضها مرصوفة بالبلاط كأننا فى حى طولون وشرفات البيوت تبرز على جانبى الطرقات الضيقة تكاد تحجب السماء عن عيون المارة فيها . وهى بيوت علق بجدرانها الصفراء غبار خفيف وكثيف أحياناً . . .

وتساءلت بينى وبين نفسى إلى أى فندق يقودنى إليه أصدقائى الإيطاليون ؟ يبدو أنه سيكون من عينة فنادق الكلوب الحسينى والأنوار والمدينة المنورة إلخ ! ! .

وتوقفت بنا السيارة أمام مبنى أصفر عتيق مكتوب عليه بحروف بسيطة : فندق أدريانو وفوجئت عند ما دخلنا بصالة استقبال واسعة ، وسعاة مطهمين يجرون لحمل الحقائب ! . . .

ومصاعد وأكثر من ستين فتاة أمريكية يتناثرن فى أبهاء الفندق كزهرات جميلات يرافق بعضهن شبان إيطاليون وأسبان وأفريقيون .

من الداخل بدا أن الفندق لا يقل عن فنادق الدرجة الأولى فى مصر أما من الخارج فالمبنى عتيق قديم .

هكذا هى روما كلها . . .

لقد احتفظوا للمدينة بطابعها التاريخى القديم . شوارعها العتيقة منذ القرون الوسطى بل إلى أبعد من ذلك منذ عصر الإمبراطورية الرومانية، وإنك لتجد شوارع بأكملها تصطف على جانبيها بيوت قديمة كأنها شواهد التاريخ . . . فقد بنى أكثرها منذ خمسة أو ثمانية قرون ! . ولم تهدم بعد . . .

بل إنهامسكونة وفيها أثاث أنيق وديكورات جميلة وتليفزيون وأدوات كهربية حديثة مختلفة لا تمت للقرون الوسطى بصلة ! .

ويتبادر إلى ذهنى سؤال وأنا أتفرج على هذه البيوت . . . لماذا . . . لا توجد فى مصر بيوت قديمة كهذه ؟

السر يكمن طبعاً فى الطوب اللبن ، العمود الفقرى للبيت المصرى منذ عهد الفراعنة . . . أما هنا فكانوا يبنون البيوت من الأحجار الكبيرة كأنهم يبنون القلاع .

وروما مدينة ضخمة كبيرة . . . ولا أظن أن هناك مدينة أخرى فى أوربا أو أى مكان آخر فى العالم يمكن أن تنافس روما فى جمالها . . . وجمال روما يرجع إلى طابعها الخاص . . . فأنت تمشى فى شوارعها فكأنما تمشى مع التاريخ . . .

البيوت القديمة من القرن الثالث عشر بجانبها عمارات حديثة . . . وآثار رومانية مختلطة بالفيلات والعمارات . . . المسلات المصرية منتشرة فى كل مكان . . .

التماثيل بالمئات فى كل مكان . . . من كل العصور تماثيل إغريقية ورومانية وحديثة . . .

إن ثلاثة آلاف عام من التاريخ وأكثر تطل عليك وتعانق عينيك كلما سرت فى أى شارع أو تجولت فى حديقة روما . . .

ماذا أقول عن الكولسيوم وهو يرتفع شامخاً وسط روما وتدخل فيه مجاناً ، وتمترج مقاصير المتفرجين من القياصرة وحاشيتهم بساحات صراع الإنسان مع الوحش . . . وتكاد الجدران العالية من حولنا تردد صدى الصرخات الوحشية للمتفرجين تمتزج بأنات الضحايا وزئير الأسود .

وفى هذه المقصورة وتلك ستجد فتى وفتاة يتبادلان القبلات الملتهبة كأنما رياح التاريخ تثير فيهما الحب والرغبة .

وعلى بعد عشرات الأمتار من الكوليزيوم أقام إنسان روما الحديث بناء جديداً هو نسخة طبق الأصل من المعابد الرومانية .

ولقد ربط موسولينى دائماً بين نظامه الفاشى ومجد الإمبراطورية

الرومانية القديم ومن ثم فقد وضعوا فى صدر المعبد الكبير تمثالا ضخماً للملك عمانويل ملك إيطاليا فى تلك الأيام ممتطياً صهوة جواده كأنما هو واحد من الفاتحين ! . وللعلم أن ذلك الملك أو غيره من ملوك إيطاليا المحدثين على الأقل لم يحقق انتصاراً واحداً فى حياته ! .

وفى الصيف تزدحم روما بعشرات الألوف من السياح الأمريكيين بالذات . . . بل تزدحم كل مدن إيطاليا . . .

والأمريكيات يأتين إيطاليا فينطلقن انطلاقاً كاملا . . . يمشين فى الشوارع حافيات . . . يرتدين الشورت على السوتيان فقط . . يخلعن . ثيابهن بسرعة ذرية مع الشبان الإيطاليين . . بينما يحتاج الأمر فى أمريكا لوقت طويل مع الشاب الأمريكى بالذات !.

قالت لى فتاة أمريكية . . . إنكم تخطئون إذ تتصورون الحياة عندنا حرة كما هى فى باريس أو روما . . . إن المرأة الأمريكية ما زال يسيطر على تفكيرها كثير من عادات العصر الفيكتورى المحافظ .

هنا يجن جنون الفتيات الأمريكيات وخاصة المراهقات فأنت ستجد فى روما فتيات فى الرابعة عشرة والخامسة عشرة قدمن وحدهن جماعات للسياحة فى أوربا وفى روما بالذات .

ولقد عمدت السلطات الإيطالية إلى تشجيع السياحة بكل طريقة . . . تصور أن زيارة المناحف والآثار كلها بالمجان ؟ . . . وأطلقت الحرية كاملة فى اللوكاندات للعلاقات الشخصية . . . بل إن الجرسونات عادة ما يسهلون الاتصال واللقاء ! ! .

وتعمد تلك السلطات إلى إبقاء طابع روما كما هو . . . قديم وأثرى . . حتى إنه لا يجوز إحداث أى تغيير أو إعادة تنظيم فى الشوارع إلا إذا أقرت لجنة من الفنانين ذلك التغيير .

وفى بعض المناطق فى روما يخيل إليك أنك فى مصر . . . إذ تتناثر الآثار المصرية جنباً إلى جنب الآثار الرومانية . . . فقد امتزج الرومان

بالمصريين القدماء . . . حتى قبل قصة كليوباترة المشهورة . . . وستجد مسلات مصرية كثيرة فى أرجاء شوارع روما .

ومن أمتع السهرات فى روما . . . الاستماع إلى الموسيقى الكلاسيكية فى المسرح الرومانى القديم بجانب الكلوليزيوم . لقد تركوا المسرح على حاله . . . لم يجروا فيه حتى رتوشاً . . . سوى إعداد الميكروفونات لنقل الموسيقى فى أرجائه . . . متى سنستخدم المسرح الرومانى الذى اكتشف فى كوم الدكة ؟ . إن التسابق لشراء التذاكر فى مسرح روما يكاد يثير معارك كل يوم .

ويهرب الناس فى الصيف الحار إلى مصيف سانتا ماريلا على بعد خمسين كيلومتراً من روما حيث تشم رائحة البحر الأبيض فى كل مكان كما لو كنت تقترب من سيدى جابر وأنت متجه إلى الإسكندرية .

ولقد قضيت يوماً كاملا فى سانتا مارينلا . . . استمتعت فيه بالبحر . . . وبالتأمل فى جمال الإيطاليات على الطبيعة .

كثير من الإيطاليات أشبه بالمصريات . . . إن نساء حوض البحر الأبيض يحملن جميعاً طابعاً واحداً . . . سمراوات . . . ساخنات . . . كثيرات الصخب والضجيج ! .

على حدود سويسرا وإيطاليا . . . وقف القطار الذى نقلنى من جنيف إلى ميلانو . . . فجأة تحول سكون القطار إلى « غاغة » . . . وضجة ، وصياح . . . وضحك بصوت عال . . . تفجرت الحيوية فى كل مكان . . . وازدحم الديوان ، وبدأ « النقار » هنا وهناك . . . كأننا نحن فى مصر . . . ولكننا كنا ندخل إيطاليا . وهؤلاء الركاب الإيطاليون المتدفقون حيوية وحرارة ، يركبون من تلك القرية الإيطالية على الحدود إلى مدن الشمال ! ! .

والشمال فى إيطاليا يسمونه الجزء الأوربى . . . أما الجنوب فكأنما هو ليس أوربا . . . وهذا صحيح إلى حد ما . . .

رأيت فى قرية أرلومبيدى فى الجنوب أناساً أشبه بالصعايدة المصريين. وبيوتاً للفلاحين أخرجتنى تماماً من جو الفلاح الأوربى الذى شاهدته فى شمال إيطاليا وألمانيا وإنجلترا .

والسبب بسيط . . . إنهم فى الشمال ركزوا معظم الصناعة . . . أما فى الجنوب فالصناعة قليلة والسيطرة التقليدية كانت للإقطاع .

وثمة معارك دامية حدثت . . . وثمة إصلاح زراعى حدث . . ولكن جنوب إيطاليا ما زال متخلفاً . . . وهو مشكلة المشاكل بالنسبة للحكومة . . وللكنيسة وللشيوعيين .

على أننى فى مصيف سانتا ماريلا استمتعت جداً بلقاء عمدة المدينة الصغيرة . . . وأدهشنى أنه يعمل كجندى مرور . . . إذ العمد فى أوربا عادة يعملون عملا يكسبون منه قوتهم ما لم تقرر البلدية تفرغهم .

حكى لى « سارينو » العمدة الشيوعى . . . لسانتا ماريلا كيف أنه أثناء العدوان الإسرائيلى على مصر . . . شاهد سيارة ملصوقاً عليها العبارة التى شاعت فى أوربا : « نحن نساند إسرائيل » تمر فى الطريق وهو واقف يمارس مهنته كشرطى المرور .

وكان هو مسانداً لمصر طبعاً . . . فحرر مخالفة للسيارة لغيظه من الشعار الصهيونى. ومن سانتا مارينلا انتقلنا إلى ميناء « تشيفى تافيكيا » هو ميناء روما تقريباً وإن كان يبعد عنها ٦٠ كيلومتراً .

والسكان هناك أربعون ألفاً . . . معظمهم عمال البحر وأسرهم . . .

ولفت نظرى أن هناك فى تلك المدينة مائتى عضو فى الحزب الشيوعى الإيطالى فقط . . . ولكنهم يسيطرون كتنظيم سياسى سيطرة كاملة على المدينة . . . على نقابة البحارة . . . على البلدية، على العمدية . على الجمعية التعاونية . . . على الميناء ، على الشرطة ! .

وتجربة كيف أن عدداً صغيراً كهذا يكسب ثقة عشرات الألوف تجربة جديرة بالدراسة والتأمل .

ولقد كان عمال ميناء « تشيفى تافيكيا» يقفون معنا أيضاً أيام العدوان.

فعند ما بدأت الأزمة اجتمع عمال الميناء فى اجتماع عام . . . ووجهوا خطاباً لرئيس اتحاد عمال البحر ورئيس الوزراء يعلنون فيه أنهم لن يمونوا أى سفينة تنقل السلاح إلى الشرق الأوسط لطرفى النزاع ! .

وصرخ العمال الكاثوليك قائلين إن حكاية « طرفى النزاع » هذه خدعة لأنه لا توجد أسلحة عربية تشحن من إيطاليا أو تمر عبر موانيها . . . وأن المقصود الأسلحة الموجهة لإسرائيل .

وقد حدث فعلا أن جاء أسطول من السيارات الكبيرة يحمل أسلحة لتنقلها السفن إلى الميناء إلى إسرائيل ولكن عمال المدينة كلهم سدوا الطريق أمامها وتجمهروا طالبين عودتها من حيث أتت . . . ووقف بوليس المدينة بجانب المتظاهرين . . . وحذر العمدة قائد الأسطول من النتائج الوخيمة التى يمكن أن تحدث ! . عادت السيارات من حيث أتت . . .

من القطار الطائر إلى نسانيس الساخطين

فى القطار بعد أن غادر محطة جنيف بعشر دقائق ... مر بى رجل يرتدى بذلة رسمية أنيقة وزع علينا نشرة مطوية ... مكتوب فيها باللغات الفرنسية والإنجليزية والإيطالية والألمانية والإسبانية أيضاً اتجاه القطار والمحطات التى سيقف فيها وسرعته وموعد الوصول . ثم أسماء بعض الفنادق فى كل مدينةسيقف فيها وخريطة لتلك المدينة ...

القطار يكاد يطير على القضبان فالسرعة ١٤٠ كيلومتراً فى الساعة ... ونحن نقترب من محطة بازيل على الحدود السويسرية الألمانية ...

لا أدرى لماذا أحسست برهبة والقطار يقف على الرصيف الذى ظهرت عليه سحن رجال البوليس والجوازات والجمارك الألمان ... وجوه صلبة جامدة الملامح تذكرنى بوجوه جنود العاصفة النازيين .

هل هذا الجمود فى الوجه والملامح شىء ألمانى أصيل ... أم هو نازى طارئ . يبدو أنه شىء ألمانى قديم فقد لاحظته فى ألمانيا الديمقراطية نفسها .

ولكن تحت مظاهر القوة والجمود ، هدوء ووداعة شديدة ... لمستها فى معاملة هذا الحشد من الرسميين وهو يفرز جوازاتنا وأمتعتنا ...

حتى إن رجل الجمارك دهش لأنى لا أحمل سجائر معى فنصحنى أن أشترى من على الرصيف سجائر بثمن رخيص لأن السجائر فى سويسرا أرخص منها فى أى مكان فى أوربا .

القطار يتحرك الآن على الأرض الألمانية ... وتجيش فى صدرى انفعالات غريبة لم أحس بها فى أى بلد أوربى آخر ...

على الجانبين مداخن المصانع ضخمة عالية ... نحن فى ترسانة أوربا ... البلد الذى قفز إلى المرتبة الثالثة فى الإنتاج الصناعى بعد أعظم دولتين صناعيتين أمريكا وروسيا .



ألمانيا النازية

ومن تلك البقعة التي تشبه « سرة » أوربا امتدت ألسنة اللهب جيوشاً عاصفة أهلكت شعوب أوربا مرتين فى أقل من ربع قرن من الزمان . . .

لا يوجد شعب فى التاريخ الحديث على الأقل . . سمح لحكامه أن يرتكبوا تلك الجريمة بمثل تلك السهولة ! .

فى القطار كان معى فى الديوان شاب ألمانى صغير السن . . . مسافر إلى هامبورج . قال لى :

— نحن لا نحب هتلر . . .

— لماذا ؟

— ألمانيا مزقت بسببه ووقع نصفها فى يد أعدى أعدائها . . .

قلت : لنفرض أن هتلر انتصر . . هل كنت تحبه ؟

سكت ولم يجب ! ! .

فى الديوان أيضاً كانت سيدة ألمانية عجوز تتبع مناقشاتنا باهتمام شديد . . . وتبتسم فى ود . . .

— أنت عربى . . . نحن نحب العرب . . . ولكنا لا نعرف بالضبط ماذا يريد ناصر ؟ ! .

وقالت لى وهى تجيب على نفس السؤال الذى سألته للشاب .

— هتلر أصبح شماعة يعلق عليها الساسة الفاشلون فشلهم ! .

ثم أضافت :

كانت لهتلر أعمال عظيمة . . . وأخطاء فظيعة ! .

— مثل ؟

— لو كان قد توقف بعد أن استولى على أوربا وبذل جهده فى جذب الإنجليز ضد روسيا لأمكن خنق البلشفية بدون حرب وإنقاذ العالم منها ! .

— وما رأيك فى إبادة الملايين ؟ . . .

قالت فراولين كارين بمرارة شديدة :

— ألمانيا التى تراها من نافذة القطار الآن . . . والتى ستراها فى بون وهامبورج وكولونيا . وبرلين . . . ليست هى ألمانيا عام ١٩٤٥ : الأمريكان والإنجليز دفنوا الملايين تحت أنقاض خرائب الدمار الذى أحدثته طائراتهم .

وعندما سألتها عن موقفها من الروس ، لم تخف عواطفها غير الودية تجاههم ، فمن المعلوم أن أجهزة الإعلام فى ألمانيا الغربية التى يقف وراءها الانتقاميون الألمان لا يكفون عن الدعوة ضد الاتحاد السوفييتى وتصويره كمسئول عن تقسيم ألمانيا ، وأنه العدو الحقيقى لألمانيا الغربية . وخلف ستار تلك الدعاية الكاذبة المزيفة يعاد تسليح ألمانيا الغربية وتتحول إلى أقوى ترسانة عسكرية فى أوربا تهدد السلام العالمى وتحيك المؤامرات الداخلية فى بلاد المعسكر الاشتراكى ذاته .

بلتر يمثل الجيل الجديد فى ألمانيا ، الجيل الساخط على هتلر لأن سياسته مزقت بلاده . . . وفراولين كارين تمثل الجيل الذى يرى أن للنازية مجرد أخطاء !

ولكن كلا من الجيلين يجمع على كراهية الحرب . . .

والحقيقة أنى قرأت كثيراً قبل سفرى عن استعدادات الحرب فى ألمانيا الغربية وتعبئة الانتقاميين الألمان للشعب الألمانى .

ولكن الحقيقة أن ثمة شعوراً غامراً بين الألمان بالرغبة الحقيقية فى السلام . . . إن الانتقاميين والجنرالات النازيين القدامى ينفخون فى قربة مقطوعة . . . فالألمان يدركون أنه فى أى حرب . . . سيضرب الألمانى الألمانى وستكون أول طلقة من بندقية ألمانية فى صدر جندى ألمانى . . .

وفى محطة فرانكفورت استقبلنى أصدقائى دكتور رينر زول وإيرهارد شميث وجابر بيل لودريج . . .

قالت « جابى » ونحن نطوف بالسيارة فى المدينة لنلقى نظرة :

— لم تكن هنا فرانكفورت منذ عشرين عاماً . . . فهذه مدينة دمرت عن آخرها فى الحرب العالمية الأخيرة . . . ما عدا هذا الحى . . .

الحى الشعبى الوحيد الباقى الذى لم تدمره الطائرات . . . اعتنوا به وجعلوه مزاراً للسياح ولأهل المدينة الذين لا يحب الكثيرون فيها الطراز الأمريكى الذى بنيت مدينتهم مثله . . . ويرون فى الحى القديم مدينتهم العزيزة وتاريخهم الذى دمرته غارات الطائرات . . .

وأكبر قاعدة للجيش الأمريكى فى ألمانيا موجودة فى فرانكفورت وكذلك أيضاً « ملحقات القاعدة » من محطة إذاعة أمريكية خاصة ومراكز للشركات الأمريكية فى ألمانيا وأيضاً مؤسسات البغاء الشهيرة ! .

وهى مؤسسات قانونية تحتل كل منها عمارة سكنية كبيرة مقسمة إلى غرف نوم لممارسة الجنس . . . بعد اختيار البغى من صالونات خاصة ودفع « الفيزيتة » بموجب إيصال مختوم بخاتم الدولة !

قالت جبرييل : « هذا أهون على أى حال مما ستراه فى فترينات هامبورج الشهيرة ! » .

وعندما مررنا على بيت « جوته » وهو البيت الذى أقام فيه الشاعر الألمانى العظيم سنوات طويلة . . . خطر ببالى الفرق بين الشاعرية الرومانسية والبراءة والنقاء اللذين عبر عنهما الشاعر الكبير . . . وبين دنس الاحتلال والرذيلة الذى يلوث اليوم البلاد العظيمة للشاعر العظيم !

وتبدو الرفاهية الألمانية فى كل ركن من أركان فرانكفورت . . . المحلات مليئة بالسلع الرخيصة . . . ولا توجد أحياء « شعبية » فى المدينة كلها . . . لا عشش ولامساكن حقيرة . . . كل شىء نظيف ، وأنيق ؛ فستوى المعيشة فى ألمانيا أعلى منه فى بريطانيا . . .

ولكن تحت هذا السطح تلعب المتناقضات الاجتماعية دورها . . .
ويوجد سخط . . . وبؤرة السخط فى فرانكفورت هى نادى فولتير . . .

وكالعادة يعمد الساخطون إلى لفت الأنظار إليهم . . . فعلاوة على الشعور والذقون الطويلة فهؤلاء شبان قد أتوا بنسانيس تستكين وتتقافز فوق أكتافهم ورءوسهم . . . وجلبة وضوضاء ، وصيحات ودخان يعبق المكان ورغاوى بيرة فى الكئوس وعلى الشفاه . . . ثم فجأة « سمع هس » ! إذ قد دخل زعيم النادى ليلقى كلمتين بصوت عادى أو صوت غاضب تارة أو ساخر تارة أخرى ... فإما رد عليه الحاضرون بالصفير والاستهجان ... أو بالتصفيق . . . وربما قذفه واحد من فرقة النسانيس بنسناس . . . ثم يعود الصياح والجلبة والثرثرة فى السياسة والحب والجنس والشذوذ كما كان ! . . .

* * *

من محطة فرانكفورت ركبت قطار أل ت. ى . ى . المشهور . . .
يقولون دائماً إن بين أمريكا وأوربا ثلاثين عاماً فرق التقدم التكنيكى . . . لا أدرى إذن كيف حال القطارات فى أمريكا . . . ولكن فى أوربا قطار أل ت . ى. ى . هذا يبدو كقطار الأحلام . . .

إن نصفه الأعلى والسقف من الزجاج . والمقاعد وثيرة ومتحركة . . . ويطير القطار على القضبان بسرعة ١٥٠ و ١٦٠ كيلومتراً .

وفى القطار بار واسع . . . وبيست للرقص وصالونات للتدخين. . . وتليفون تخاطب به أى مكان فى العالم . . . ومكتب بريد وتلغراف . . .

وبجانبك زر تضغط عليه إلى البارمان ... وتطلب فى ميكرفون بجانبك ما تريد ورقم مقعدك . . .

أهم من ذلك أنك داخل القطار لا تسمع ضجة القطارات التقليدية فثمة أجهزة تمتص الضوضاء، وتمتص الاهتزازات . . . وكأنك فى طائرة . . لا تشعر أنك فى علبة من الحديد تجرى على حديد ! .

فى الطريق إلى بون . . . كانت المناظر الطبيعية الساحرة من حولى . . . ونهر الراين على اليمين . وجبال صغيرة خضراء تحيط به . . . وسفن شحن وزوارق بخارية جميلة تشق طريقها فى النهر . . . وبيوت الفلاحين أو فيلاتهم الأنيقة تفتح النفس وتشرح الصدر وتغرى بالأحلام . . . متى يعيش فلاحونا فى فيلات كهذه ؟ ! . . .

ولا تبدو قط مدينة بون كعاصمة دولة كبرى . . . إنها أشبه بضاحية المعادى . . . يقيم فيها مائة وخمسون ألف مواطن فقط . . .

وبعد الحرب دارت مناقشات حادة . . . هل تختار فرانكفورت أم بون عاصمة لألمانيا الغربية . . . واستقر الرأى على بون . . . ربما لأن الحلفاء قصدوا أن تكون عاصمة ألمانيا بعيدة عن هيلمان الدولة النازية البائدة ! .

وفى بون ولد بيتهوفن . . . ولكن معظم موسيقاه ألفها فى فينا . . .

والصحفيون الأجانب لا يحبون بون . . . لأنها مدينة هادئة ساكنة . . . ليس فيها صخب ومرح المدن الأوربية الأخرى . . .

علق صحفى أمريكى ذات مرة ونحن نتعشى فى أحد مطاعم بون . . . قائلا . . . إن بون تشبه نصف جبانة مدينة شيكاغو . . . مع فارق واحد هو أن عدد الميتين هنا ضعف عدد من فى جبانة شيكاغو ! . . .

وأنا شخصياً لم أحس بهذا الإحساس . . . بل أحببت مدينة بون كثيراً . . . وبخاصة ضاحيتها باد جود سبرج . . . على بعد خمسة كيلومترات منها . . . وفيها يوجد مجلس النواب الألمانى ، وعدد من الوزارات الألمانية . . . والسفارة المصرية .

فى مطار بون . . . جلست مع مودعى ديتر وريج وصديقته الإنجليزية « بنيلوس » . . . سألنى عن انطباعاتى بعد تلك الأيام التى قضيتها فى فرانكفورت وبون . .

قلت :

ـــ أكاد أحس أنى فى إنجلترا . .

ضحك وهو يربت على كتف صديقته الإنجليزية .

ـــ نحن فعلا نحب الإنجليز . . . وقد غزت القبائل الجرمانية إنجلترا منذ آلاف السنين . . . والعائلة المالكة فى إنجلترا أصلها ألمانى . . .

ـــ برغم الحرب مرتين ضد الإنجليز ؟

ـــ نعم . . . نحن أقرب إلى الإنجليز من الفرنسيين ومن السويسريين ومن الأمريكان طبعاً . . .

وأضاف ديتر ورنج .

ستحس بإنجلترا أكثر فى هامبورج .

الشباب الأوربى :

خنافس ومناضلون !

أمامنا كان يجلس على مقعد ويمد ساقيه على المائدة فى مواجهة أكثر من ألف شخص تجمعوا فى تلك القاعة الكبيرة فى سكجنس بمقاطعة دربشاير بإنجلترا ! !

وكان ماثيو جون يتحدث عن الفوارق بين منظمة الشباب فى حزب الأحرار ومنظمة الشباب الشيوعى ، ولماذا لا يمكن ضم المنظمتين وإن كان يمكن التقاؤهما فى بعض الأعمال .

وكان غريباً بالنسبة لى أنا القادم من الشرق حيث التقاليد والآداب العامة والخاصة . . .

إن أحداً من الحاضرين فى ذلك المؤتمر ومنهم وفود أجنبية من روسيا وأمريكا وفرنسا وفنلندة .. و... إلخ . لا يحتج أو يبدو عليه حتى مجرد امتعاض من حذاء المتكلم المصوب فى وجوهنا جميعاً وهو « يتقصع » — ما زلت متأثراً بالآداب العامة فى الشرق ! — ويتثنى ويضحك وتتجاوب القاعة مع ضحكات (الزعيم) الذى يرأس أكبر منظمة شباب فى إنجلترا ويمثل صداعاً دائماً لقيادة حزب الأحرار الرجعية .

ولم يكن ذلك المنظر هو المنظر الغريب الوحيد بالنسبة لى . . . فقد كنت ألاحظ من حولى فى القاعة عدداً لا بأس به من السبعمائة مندوب شباناً ذوى شعور طويلة وذقون غير مشذبة وبنطلونات ممزقة ، وفتيات شبه حليقات الشعر وبعضهن يرتدين شورتات قصيرة . . .

أما المينى جيب فهو الزى السائد . . .

كيف يمكن أن يكون أولئك أعضاء فى منظمة تتخذ جانباً حاداً غير مساوم فى الصراع الطبقى القائم فى بريطانيا ! ! .

وتراقص السؤال أمامى مرة أخرى وأنا أسمع عضواً يقف فى الجلسة الافتتاحية للمؤتمر يسأل الرئيس . متى سنرقص أيها الرفيق . . .

ولم يستفز الرئيس وإن كانت هناك بعض ضحكات خفيفة ترددت فى جنبات القاعة . . . وقال الرئيس فى رزانة . . .

« أنا أرغب شخصياً أن أقضى الوقت كله فى الرقص . . .

ولكن أظن أيها الرفيق أننا قدمنا هنا لنناقش سياسة منظمة الشباب ! . . .

وعلى أى حال فإن صالة الرقص ستفتح كل ليلة من الثامنة ! » .

ثم أضاف الرئيس قائلا :

« ولعلك تعرف أن فريق الكنجز سيأتى الليلة ! » .

وارتفعت صيحات : هراه . . . هيه ! . . .

والكنجز هم إحدى فرق الخنافس فى بريطانيا . . ومنهم عضوان فى منظمة الشباب الشيوعى الإنجليزى !

وشد انتباهى ذات مرة فتاة جميلة تتفجر الأنوثة من فستانها الخليع — بالنسبة لنا هنا — إذ هو نوع من الميكروجوب الضيق جداً حتى إن صدرها النصف عارى يكاد يقفز منه . . . صعدت الفتاة ذات مرة إلى منصة الخطابة . . . وصفر الناس جميعاً لها بما فيهم بعض الأجانب .

وتأملت الفتاة بعين شرقية . . . ولكن الكلمات انطلقت من فم « كوليا » فى ثورة شديدة تتحدث عن أزمة الإسكان فى الأحياء الفقيرة فى جلاسجو وحالة البؤس التى يعيش فيها السكان المحشورون فيها كالسردين .

وأخذت تربط بين سياسة الحكومة البريطانية ، بالنسبة للسوق المشتركة وأزمة الإسكان بطريقة بارعة . . .

وتصورت أن كوليا لا تعدو أن تكون ثوروية من ثوار الصالونات ، واهتممت أن أعرف عنها الكثير ... فعرفت أنها عاملة مرتبها ١٨ جنيهاً فى الأسبوع ، وأنها نظمت ثلاثة إضرابات فى مصنعها البالغ عدد عاملاته ١٨٠٠ عاملة ، وأنها تخصص كل يوم سبت من عطلة الأسبوع

لتوزيع جريدة المورننج ستار ، وترأس اجتماع لجنة مناصرة ڤيتنام لشمال غرب إنجلترا . . .

أما يوم الأحد فتقضيه بصحبة « البوى فرند » صديقها الذى يعتزم الزواج بها بعد أن ينتهى من دراسته الجامعية فى جامعة جلاسجو .

وعند ما زرت جلاسجو التقيت بكوليا فوجدتها تجمع عدداً من عضوات المنظمة ليحملن الفرش وجرادل البوية ليكتبن على الجدران شعارات مثل . ارفعوا أيديكم عن فيتنام . نحن لا نساند إسرائيل فى العدوان ! . . . رداً على شعار الصهاينة نحن نساند إسرائيل، الذى انتشر فى بريطانيا فى تلك الفترة . . .

الصورة المألوفة لنا من النضال وسلوك المناضل ومظهره ليست هى الصورة فى أوربا .

إن جوهر السلوك النضالى واحد فى أى مكان فى العالم مثل التضامن والتآخى والتعاون والتضحية والحماس والنشاط والرقابة والشعور بالمسئولية . . . إلخ .

ولكن مظاهر السلوك مختلفة تماماً . . .

لفت نظرى ذات ليلة فى حلقة الرقص على أنغام موسيقى الخنافس الصاخبة ، شاب كان يرقص متمايلا فى عنف شديد ، وفى الصباح كنت أسمعه فى المؤتمر يدلى بآراء متطرفة ، فهو واحد من قادة التيار الموالى لتفسير الصين الشعبية للماركسية !

قلت « لجو بوش » : إنى مندهش ... كيف أنه متطرف فى يساريته ومع ذلك يتهدل شعره على كتفيه ويرقص هكذا . . . ألا تناقض بين الثورية وبين هذه العادات البرجوازية الصغيرة ؟

أجاب ضاحكاً :

« كان ماركس وإنجلز يربى كل منهما شعره . . . فقد كان طول الشعر فى ذلك العصر يمثل جاذبية فى الرجل ! هل يمكنك أن تجد تفسيراً لتربية الذقون فى كوبا ؟ ! .



خنافس لكن مناضلون

أما ذلك النوع من الرقص فقد أصبح شيئاً عادياً هنا . . . وهم فى أفريقيا وأمريكا اللاتينية يرقصون تلك الرقصات العنيفة . . أم أنك ترى أنهم همج ؟ ! » .

ولكن ألا يوجد انسياق فى هذا التيار : الرقص والشعر وتلك التقاليع ؟ . .

أشار « بارنى ديفيز » رئيس منظمة الشباب إلى رأسه قائلا :

« المهم ما فى هذا الرأس ! » .

إن هؤلاء الشباب الذين تراهم يرقصون ويربى البعض منهم شعره تكون مخطئاً إذا لم تر إلا هذا الجانب فيهم . . . لماذا لا تراهم وهم يتناقشون فى الاجتماعات صباحاً وبعد الظهر ؟ لماذا لا تراهم فى مسيراتهم على الأقدام من أقصى شمال إنجلترا حتى لندن (٨٠٠ ك) ضد القواعد الذرية الأمريكية أو حرب فيتنام ؟ ! .

والحقيقة أنه فى قاعة المؤتمر فى الصباح وبعد الظهر كانت تدور مناقشات حية وحادة وجادة حول سياسة حكومة العمال والتحالف معها والسوق الأوربية المشتركة ونضال المنظمة ضد الوجود البريطانى فى عدن وقرار حكومة العمال برفع رسوم الجامعات بالنسبة للطلبة الأجانب . . . وقد اتخذ المؤتمر قراراً بتنظيم إضراب بين ٢٠٠ ألف طالب إنجليزى احتجاجاً على ذلك القرار . وقد نجح ذلك الإضراب فعلا وأجلت حكومة العمال تنفيذ قرارها عاماً كاملا ! .

وعند ما جاء دور مناقشة الشرق الأوسط دعيت لإلقاء كلمة لتوضيح الموقف هناك ، والتهبت الأكف بالتصفيق تحية لمصر . واتخذ المؤتمر قراراً بتأييد البلاد العربية ضد العدوان الإسرائيلى ! .

ولم يناقش المؤتمر مشاكل سياسية فقط . . . بل ناقش مشاكل اجتماعية وأبرزها مشكلتا الشذوذ الجنسى وانتشار المخدرات .

وفوجئت بمندوب فى المؤتمر اسمه « فكتور داب » يتحدث عن تجربة ج . ع . م فى مكافحة المخدرات وكيف أن العقوبة تشتد بمقدار الاتجاه

نحو التحول الاشتراكى . . .

وقف عضو آخر يطالب بإباحة نوع من المخدرات « الماريجوانا » قال إنه لا يضر وإنما يسبب نوعاً من (الانبساط والانسجام) .

وعند ما عرض اقتراحه للتصويت صوت معه ٢٤ عضواً من بينهم سبع فتيات من حوالى ٦٠٠ مندوب ! . .

* * *

فى الجلسة الختامية للمؤتمر قدم « بيتر كارتو » السكرتير التنظيمى للمنظمة تقريراً عن نشاطها :

قال إن خطتنا فى المؤتمر الماضى كانت تجنيد خمسة آلاف عضو جديد فى هذا العام لم تجند إلا ٣٠٠ عضو فقط ! .

كان علينا أن نفتح ١٠٠ فرع جديد . . . لم نفتح إلا ٦١ فقط .

كان مفروضاً أن ننسق نشاطنا مع الحزب ، لم تنجح خطة التنسيق تماماً ! .

فى العام الماضى أصدرنا ثلاثة أرباع مليون منشور وكان المفروض أن نصدر نصف مليون .

زاد توزيع مجلة المنظمة خمسة آلاف نسخة .

قامت لجان هذا المؤتمر بدراسة ١٧٤ اقتراحاً .

أكبر نجاح حققته المنظمة كان فى مجال حرب فيتنام إذ أمكنها كسب عشرات الألوف من الأنصار . وكذلك فى مجال الطلبة أمكننا تنسيق العمل مع منظمة شباب الأحرار ومنظمة الشباب الكاثوليكى .

* * *

ومنظمة شباب الأحرار هى أكبر منظمات الشباب فى إنجلترا . وتضم حوالى ثلاثين ألف شاب . . . وهناك منظمة الشباب الاشتراكى التابعة لحزب العمال البريطانى ، وبرغم ضخامة حزب العمال فإن عدد أعضاء المنظمة لا يزيد على اثنى عشر ألفاً تنهبهم الانقسامات المختلفة .

حتى إنه بينما قيادة تلك المنظمة أرسلت خطاباً تعتذر فيه عن عدم

إرسال مندوبين للمؤتمر فإنه حضر عدد من أعضاء تلك القيادة والقاعدة . . المؤتمر ! . .

أما منظمة الشباب الكاثوليكى فتضم حوالى ١٥ ألف عضو ، ونشاطها غير بارز إلا فى لجان مناصرة فيتنام .

هناك حوالى مائة ألف شاب إنجليزى منظمون فى منظمات شباب تشتغل بالسياسة .

وهو رقم يبدو هزيلا بالنسبة لتعداد الشعب الإنجليزى البالغ خمسين مليوناً . . .

ولكنهم فى إنجلترا يحمدون الله على هذا العدد من الشباب الذى يشتغل بالسياسة بشكل مباشر وبطريقة منظمة .

ولكن فيم تنشط تلك المنظمات ؟ . . . هذا هو السؤال . . .

إن نشاطهم يشمل كل ميادين النشاط السياسى العادية ابتداء من الصراخ فى حدائق هايد بارك إلى المسيرات الكبرى ضد الغواصات الذرية الأمريكية . . .

وعلى عكس ماعندنا .. إذ أن أبرز مسئوليات منظمة الشباب فى مصر هو توجيه طاقة الشباب إلى الإنتاج وزيادته . . . ولكنهم فى إنجلترا وأوربا الغربية عموماً لا يهتمون قط بمسألة الإنتاج هذه .

ويفسر لى الموضوع الدكتور « تونى شارتر » عضو اللجنة المركزية لمنظمة الشباب والذى ألقى فى المؤتمر عدة محاضرات اقتصادية :

نحن هنا فى أوربا نحارب فكرة زيادة الإنتاج ... فتلك الزيادة فى عهد الاحتكارية تعنى مزيداً من الربح على حساب مزيد من استغلال العمال . . . وأحياناً تكون فى بلادنا مشكلة زيادة إنتاج .

ولكن . . . ما هو الموقف أثناء الكوارث مثلا ! ! .

« هنا استعدادات كافية من جانب الحكومة لمواجهة أية كوارث كالفيضانات وغيرها . . . ومع ذلك فإن أعضاء منظمة الشباب يشاركون

فى التخفيف من آثار الكوارث إذا نقصت الوسائل الحكومية كما حدث فى كارثة ويلز الأخيرة . وفى الوقت نفسه يستغلون ذلك النقص فى كشف تقصير الحكومة الرأسمالية وعيوب النظام الرأسمالى . . .

والعضوية فى منظمة الشباب الشيوعى فى إنجلترا تبدأ فى سن الرابعة عشرة . . . وفى تلك الفترة لا يدرسون للعضو الجديد شيئاً محدداً لأنه « لا يستطيع تكوين فلسفة خاصة فى تلك السن المبكرة » على حد قول بارنى ديفيز رئيس المنظمة . . . وإنما يشركونه فى معارك مختلفة . . . وهو عادة يكون متحمساً منطلقاً . والمفروض أنه سيكتسب بعض المعرفة بالتجربة العملية . . . وفى سن السادسة عشرة يبدءون فى تدريس كورسات نظرية له على ثلاث مراحل . . .

والقيادات فى كل المستويات بالانتخاب المباشر . . . ابتداء من سكرتير الوحدة إلى قيادة الفرع إلى قيادة المنطقة فاللجنة المركزية التى ينتخبها المؤتمر كل عامين . . .

والتركيب الاجتماعى للمنظمة أساساً من العمال والطلبة . . . ونسبة العمال حوالى ٦٠٪ وقالوا لى إن النسبة كانت أكثر فى السنوات الماضية . . . وحوالى نصف الأعضاء من البنات . . . ومن الطبيعى أنه يوجد أعضاء يتخلفون عن الاجتماعات ... فماذا يفعلون لإعادتهم إلى النظام والتنظيم ؟...

يقول بيتر كارتر :

إذا أردت كسب الناس يجب أن تكون معهم . . . فالشبان هنا يرقصون ويلعبون ويخرجون فى معسكرات فى عطلات نهاية الأسبوع . . .

نحن نقيم من حين لآخر حفلا راقصاً ندعو فيه كل أعضاء المنظمة وأصدقاءهم ، فيأتى المتخلفون طبعاً ، وتحدث مناقشات خفيفة معهم . . . ويعيشون فى « الجو » ساعات . . . فيعود ارتباطهم بنا من جديد . . .

مثلا مشكلة الانقلاب فى اليونان تهتم بها حتى الصحف البرجوازية ... فندعو إلى حفل راقص تقدم فيه فرقة يونانية من اليونانيين المقيمين فى

إنجلترا رقصات شعبية . . . وندعو أعضاءنا وأصدقاءهم . . . فيحضرون جميعاً . . . ويدفعون ثمن التذكرة البسيطة . . . وأثناء الاحتفال تظهر ليندا دراجوس زوجة الزعيم اليونانى المسجون . . . فيصفق لها الجميع وتتحدث عن مأساة اليونان من خلال مأساة زوجها . . .

ويتحمس الجميع . . . وفى الغد تسير مظاهرة لمناصرة الشعب . اليونانى يكون أعضاؤنا المتخلفون فى الطليعة منها ! . . . وهكذا . .

والآن ، ما علاقة منظمة الشباب بالحزب ! .

المنظمة مستقلة عن الحزب فى قيادتها وماليتها . . . ولكن رئيس المنظمة عضو فى المكتب السياسى للحزب الذى يرسم السياسة للحزب ومنظماته ومنها منظمة الشباب . . .

والمفروض أنه من حق كل عضو فى المنظمة أن ينضم للحزب عند ما يبلغ الواحد والعشرين من عمره . . . ويمكن الجمع بين عضوية المنظمة والحزب فى وقت واحد . . .

ومنظمة الشباب الإنجليزية تقيم علاقات بكل منظمات النضال الوطنى فى المستعمرات وتساند نضالها . . .

وقد سألونى عن منظمة الشباب المصرية التى سمعوا عنها ، والتى لم ترسل لهم ولا لغيرهم من منظمات للشباب فى أوربا الغربية أية معلومات أو بيانات عن أهدافها ونشاطها . . .

وقال لى بارنى ديفيز نحن نود أن نتعاون مع منظمة الشباب عندكم . . . ونتبادل الزيارات . . . وأنا أقول لأمين منظمة الشباب . . . هناك فى إنجلترا ، عشرة آلاف شاب أشبه بجيش فدائى فى ظلام الإمبراطورية البريطانية . . . صديق لنا قبل أن نراه . . . ويده ممدودة إلينا . . . جيش من الدعاة لقضايانا بالمجان . . . فقط أعطوه مادة الدعاية . . . وأحسنوا عرضها . . .

الفلاحون . .

ونجوم السينما والمثقفون . .

فى أوربا . . !

لم يكن أمامى الآن إلا أن أقتحم عليهم مائدتهم وهم ينتشرون حولها يلعبون الورق ويشربون النبيذ الوردى فى شراهة كبيرة وهم يضجون بالخصب والضحك العالى :

– بونجور . . أيها السادة . .

ورفع عدد قليل منهم رءوسهم من فوق أوراق اللعب . . ونظروا إلى فى تكاسل أو لا مبالاة . .

ولمعت عينا واحد منهم أحسست بحرارة يسيرة فى يده وهى تمتد إلى مصافحتى .

وبدأت جولتى داخل عقول وقلوب هؤلاء الفلاحين من أبناء قرية « فيزوليه » فى طريقنا إلى نهر اللوار . . .

هؤلاء هم أحفاد فرسان الصليبيين الذين قاموا « ببروفة » غزو الصهاينة للأرض المقدسة منذ عدة قرون . . . فقرية « فيزوليه » الفرنسية كانت مركزاً لتجميع جيوش الصليبيين حيث كان يسوقهم أمراء الحرب تحت شعارات كاذبة إلى بيت المقدس . . .

ولكن ليس ثمة ما يوحى بوجود أى علاقة بين هؤلاء الفلاحين وفرسان القرون الوسطى . . . بالعكس إنهم ينظرون فى سخرية إلى تماثيل الفرسان وقد بان التعب على وجوههم . . . ويقول جان روجيه مثلا . . .

– ومع ذلك فقد انكمش البابا فى أصغر من فيزوليه . . . يشير بذلك إلى مدينة الفاتيكان الصغيرة ! . . .

والفلاح الفرنسى متخلف عن الفلاح المصرى فى بند الكرم «والجدعنة»..
فهو فلاح انعزالى . . . فيه تجسيد لمعنى فردية البرجوازى الصغير وهى
تسير على قدمين ! . . .

الاجتماعية مقصورة فقط على الأصدقاء . . . أما الغرباء . . . فليست
هناك عبارات مثل أهلا وسهلا . . . تفضل . . . شرف . . .

لقد مكثت على المائدة أتحدث مع الفلاحين ساعتين . . . دون أن
بعزم على واحد بكأس من النبيذ ! . . .

ولم يتغير الموقف إلا بعد أن دبت الألفة بينى وبين بعضهم حتى
دعانى جان روجيه إلى بيته قبل عصر ذلك اليوم . . .

وكلمة فلاح فرنسى أو فلاح أوربى . . . كلمة غير دقيقة . . .

كنت أتحدث مرة مع النائب العمالى جريفث فى لندن عن الفلاح
الإنجليزى . . . قال لى لا تقل فى الريف الإنجليزى كلمة فلاح . . .
إنها إهانة للإنجليز . . فلا يوجد هنا فلاحون بمعنى الفلاح عندكم أو فى
الهند . . . هنا مزارع ! . . .

والحقيقة أن صورة الفلاح الأوربى مختلفة تماماً عن الصورة المرسومة فى
ذهننا عن الفلاح . هنا رجل يرتدى بدلة أو « أفرول » كاملا ... وحذاء
طويلا ... ويعمل على ماكينة محراث أو آلة جنى أو درس أو عصير ...

هو لا يخوض بقدمين وساقين عاريتين فى ماء . . ولا يدير طنبوراً أو
يجذب شادوفاً وساقيه مغروستان فى الطين .

هو كمن فى مصنع ولكنه مصنع فى الهواء الطلق مترامى الأطراف . . .
تتبعثر فيه وسائل الإنتاج كيفما اتفق على أبعاد مختلفة ! . . .

والعلاقة بينه وبين الأرض مختلفة أيضاً بعض الشىء . . .

فلا يوجد ذلك الفلاح الذى يملك قيراطين أو فداناً وفدانين . . .

* أصغر « فلاح » فى فرنسا . . . يملك ما بين خمس عشرة ، وعشرين
هكتاراً أى ثلاثين أو أربعين فداناً . . .

وفى ألمانيا ما بين عشرين هكتاراً وثلاثين[١] ... وفى سويسرا وإنجلترا تعتبر الخمسون فداناً مزرعة صغيرة .

وهذا الشكل من الملكية « الصغيرة » فى أوربا ليس هو الشكل السائد للملكية الزراعية . . .

فالشكل السائد هو الملكية الرأسمالية الكبيرة . . . شركات ضخمة تملك مزارع هائلة تضم ما بين خمسين ألفاً ومليون فدان . . . تزرع كلها وفقاً لتخطيط وتنظيم علمى دقيق . . . ويعمل فيها عمال زراعيون يتقاضى الواحد منهم أجوراً لا تقل عن أجور العمال الصناعيين ولهم إجازة أسبوعية يومان . . . ولهم تأمين ضد البطالة وتأمين صحى و ... إلخ .. وثمة أيضاً عمال موسميون لهم مشاكل أيضاً . . . وهم عمال جنى المحاصيل خاصة للعنب وهؤلاء يستقدمون من أسبانيا وجنوب إيطاليا أفقر أجزاء أوربا . . .

وهناك الملكية الفردية البحتة لفرد أو عائلة ... وهذا واضح تماماً فى بلد كإنجلترا بالذات حيث ملكة إنجلترا وحدها تملك نصف مليون فدان ! ! .

ويوجد « لوردات » و « سيرات » يملكون الألوف من الأفدنة وعائلات تملك الواحدة مليون فدان فى أيرلندا الشمالية . . .

وهؤلاء اللوردات يعيشون فى مستوى خيالى من المعيشة يزرى بكل تلك الترهات والأضاليل التى تسمعونها عن اشتراكية الضرائب التصاعدية فى بريطانيا ! ! .

لقد قضيت يومين فى قصر أحد هؤلاء اللوردات . . . وهو لورد شيوعى درس فى جامعة كامبردج تأثر بالماركسية، وورث « اللوردية » عن أبيه ! ! . . . إنه يملك مزارع ومراعى لا يدركها مرمى البصر . . .

---

(١) الهكتار = ١٠,٠٠٠ متر مربع ، أى حوالى فدانين ونصف فدان .

وسيارات وخدم وحشم . . . كما يظهر فى أفلام السينما . . .

وعزاء اللورد الشيوعى هو أنه يقدم المساعدات المالية السخية للحزب الشيوعى ولجنة تحرير المستعمرات من حين لآخر . . . وأنه يطالب دائماً فى كل جلسة من جلسات مجلس اللوردات بإلغاء المجلس العتيد ! . . .

وقد كان هناك الإقطاعيون الكبار وأمراء العسكرية البروسية فى ألمانيا يملكون معظم أرض ذلك الجزء من ألمانيا والمسمى اليوم بجمهورية ألمانيا الديمقراطية . . . وأطاحت بهم عمليات التحول الاشتراكي فيه . . .

وما زال بعض أولئك الإقطاعيين السابقين يمضغون أحلامهم بالعودة، واغتصاب « أراضيهم » من الفلاحين وهم يحتسون الجعة الألمانية فى تكاسل على أرصفة مقاهى برلين الغربية وميونيخ . . . وهؤلاء هم احتياطى الحزب النازى الجديد فى ألمانيا الغربية . . .

وملاك الأرض الكبار . . . غالباً ما يستغلون أرضهم عن طريق تأجيرها لرأسمالى يتولى هو استغلالها بوساطة عمال زراعيين . . .

ولكن فى أغلب الأحوال يقتطع هؤلاء الملاك مساحة من « ضيعاتهم » التى يمتلكونها . . . ويخصصونها للمزاج الشخصى مثل صيد الثعالب والأرانب وغيرها . . . وهذه المساحات « المزاجية » قد تصل إلى ألوف الأفدنة وأغلبها غابات أو مراعي، ومسورة بأسوار ويعين لها حراس يمنعون الناس من الصيد والقنص فيها لأنها مخصصة للورد وأصدقائه مثلا . . .

أما الملاك الصغار . . . الذين أشرنا إليهم من فئة مالكى الثلاثين والمائة فدان . . . فعادة ينتظمون فى روابط ومؤسسات تضعهم تحت رحمتها . . .

وكان ذلك موضوع الحديث مع أصدقائى الفلاحين الفرنسيين فى بار « لاكوك » فى قرية فيزوليه بعد أن كسر حائط العزلة بينهم وبين

. . وهذه الروابط عبارة عن مؤسسات مالية تتبناها البنوك عادة وتقدم خدمات أشبه بخدمات الجمعيات التعاونية . . .

— تقرض الزراع بفائدة . . .
— تقيم محطات ميكانيكية للجرارات والآلات الزراعية لمد المزارعين الذين لا يملكون الآلات .
— تقيم محطات لصناعة منتجات الألبان . . .
— تقيم محطات قوى كهربية لإدارة الآلات فى مزارع الفلاحين . .
وهى فى النهاية تسوق المحصول أو جزءاً منه لاقتضاء ديونها . . .
وفى السنوات الأخيرة أطلقت حكومة ديجول يد البنوك الفرنسية التى تهيمن على تلك المجمعات فرفعت سعر الفائدة على القروض إلى ٧ ٪ . . .
وفى نفس الوقت هبطت الحكومة بأسعار بعض المنتجات الزراعية وخاصة الدجاج . . . حتى تستطيع فرنسا أن تنافس بلاداً عريقة فى الإنتاج الزراعى كهولندا داخل السوق الأوربية المشتركة . . .

من هنا ثورة المزارعين فى فرنسا التى تطالعنا بها الصحف من حين لآخر . وهى « ثورات » تتخذ أحياناً طابعاً عنيفاً . . . فقد يهاجم المزارعون مقر العمدة أو المحافظة أو مركز الشرطة . . . ويحطمون الفوانيس ويقلبون السيارات وقد يضربهم البوليس بالنار ! ! .
وقد يبدو من تلك الهبات أن هؤلاء الفلاحين طبقة ثورية . . . ولكن الحقيقة أن الفلاحين يشكلون فى أوربا طبقة رجعية . . . أنهم ضد أى تغيير اجتماعى حاسم . . .
قد يثورون لخفض أسعار الإنتاج . . . أو لارتفاع سعر الفائدة . . . وقد يثورون لقرار الحكومة الفرنسية باستيراد نبيذ من الجزائر . . . لأن معنى ذلك انخفاض سعر العنب الفرنسى . . . ويهتفون : « أيها الجزائريون » . . « انكشحوا من بلادنا » ! .
ولكنهم قط لا يمكن أن يثوروا من أجل الاشتراكية أو حتى إصلاح زراعى . . . إصلاح لماذا . . . ومن أجل من ؟ . . .
إن المرء ليسرح بخاطره وهو يتجول فى ربوع الريف الأوربى

الجميل . . . الأنيق . . . النظيف . . . هل يمكن أن يأتى اليوم الذى يسير فيه هؤلاء الفلاحون فى مظاهرات صاخبة يحملون أعلاماً حمراء أو حتى « بمبية » اللون ؟ ! .

هذا وهم بعيد التحقيق . . . بل على الأرجح إنهم سيقاتلون فى استماتة حتى لا تزحف الاشتراكية من العالم الثالث إلى أرض أوربا العتيدة . . .

هؤلاء الفلاحون هم عماد أحزاب الكنيسة وكل الأحزاب المحافظة فى أوربا . . . وبهم تضرب حركة الطبقة العاملة فى المدن . ومن أبنائهم كان وما زال يتخرج ضباط الجيوش المدللون الذين يحرسون المصالح الاستعمارية فى أفريقيا وآسيا . . .

وهم فى ألمانيا كانوا سياط النازية لضرب عمال الريف . . . وفى إنجلترا هم العمود الفقرى لحزب المحافظين لمغالبة نفوذ اتحادات النقابات العمالية ...

ولكنهم فى إيطاليا . . . فى جنوبها بالذات شيء مختلف تماماً . . .

إنهم قوة من قوى الثورة . . . لأن النظام الزراعى هناك أشبه بنظام الزراعة فى مصر . . . وبلاد العالم الثالث . . .

ملكيات صغيرة ثلاثة وخمسة وعشرة أفدنة . . . وإقطاعيات ضخمة بعشرات ومئات الألوف من الأفدنة . . . وبيوت قديمة وطلمبات مياه فى الحوارى . . . وأطفال عراه ونصف عراه . . . وأكوام سباخ وقاذورات وأكواخ قديمة متهالكة تشتد كثافتها كلما أوغلت جنوباً إلى أقصى كعب الحذاء الإيطالى . . . حتى ليقترب المنظر من الصعيد الجوانى فى مصر . . . فى صقلية . . .

وثمة إصلاح زراعى انتزعه استشهاد أربعين ألف إيطالى ضد النازية ولكنه إصلاح متعثر . . . قاصر . . . أعرج ! .

* * *

ولكن الفلاحة فى أوربا . . . لا تقتصر على الإنتاج الزراعى . . .

محاصيل القمح . . .والشوفان والبنجر والتفاح و . . . إلخ .

إن الثروة الزراعية الأساسية فى بعض البلاد مثل سويسرا وهولندا . . . من منتجات الحيوان .

ويمكن أن نتصور ذلك عند ما تعرف أن ٤٠٪ من أراضى ألمانيا الغربية الزراعية هى مراع . . . وتبلغ النسبة ٢٥٪ فى إنجلترا . . . وحوالى ٥٠٪ فى سويسرا .

الأراضى الزراعية لاتغل كثيراً فى حد ذاتها .. حتى بساتين الفاكهة فإن كيلو التفاح الفرنسى يباع لتجار الجملة أو شركاتها بثلاثين سنتيماً . . . ليمر بعمليات وساطة عديدة ليباع للمستهلك بمائة سنتيم . . .

وفى كتاب الإحصاء السنوى البريطانى لعام ١٩٦٧ يظهر أن متوسط غلة الفدان الزراعية تتراوح ما بين خمسة عشر وعشرين جنيهاً إسترلينيا فقط . . . أى أن الفلاح الذى يمتلك أربعين فداناً يكسب حوالى ٨٠٠ جنيه فى العام . . . وهذا أقل بكثير من دخل عسكرى المرور الإنجليزى ! . . .

الدخل الحقيقى للفلاح هو من الثروة الحيوانية . . . فجزء كبير من الأرض مخصص للرعى . . . هذا غير المراعى « الحرة » على سفوح التلال والجبال . . ومعروفة حكاية عشرات الأرطال من اللبن التى تدرها الأبقار الفريزيان وغيرها من أنواع الأبقار . . . هذا غير الخنازير والدجاج والخراف ، حتى عش الغراب يكسبون منه ذهباً . . وهو نوع من النباتات الفطرية يربى فى مزارع حتى ليكبر ويقدم فى المطاعم كأنه كبد مشوى !!...

ولعل ما يثير دهشة الزائر لأوربا تلك الكثرة الغريبة لأنواع الجبن . . . حتى إنه فى فرنسا يقال عادة إن الإنسان يستطيع أن يأكل نوعاً مختلفاً من الجبن كل يوم من أيام السنة ! .

والذى يثير الدهشة ... أنه تتعدد مصدر الألبان كما تتعدد أنواعها ... إن هناك لبن البقر . . . ولبن الماعز والنعاج .

ومن هذين النوعين فقط تصنع مئات أنواع الجبن . . . وهذا التنويع يأتى بأرباح طائلة . . . للفلاح ولشركات صناعة الجبن . . .

* * *

فى طرقات قرية فيزوليه . . .

نحن نسير فى شوارع مرصوفة تماماً لا يوجد تراب هنا أو هناك وفى القرية بارات . . . ودار سينما . . . ومدارس مختلفة . . . وخط أتوبيس داخلى . . . وأضواء نيون . . . ومن حولنا منازل أنيقة . . . هى فيلات . . . لا نبالغ إذا قلنا إنها أشبه بفيلات حى المعادى . . . وحول كل بيت حديقة مغروس فيها الورود والزهور . . . ويمتع البصر إمتاعاً غير محدود جمال تلك الورود والزهور وتنوعها وتناسقها . فى حدائق البيوت الهولندية . . .

وفوق كل فيلا ترتفع صاريات التليفزيون .

وقفت بنا السيارة « سيارة جان روجيه » . وفتح جان باب الحديقة الخشبى . . . ومشينا فى مشاية صغيرة . . . حتى الباب الزجاجى المسدل عليه من الخلف ستائر منقوشة . . .

يا أحلام يقظتى متى يأتى اليوم الذى يعيش فيه فلاح بلدى هكذا . . . مهلا ! . . . فذلك شوط بعيد . . . يلزمه إنتاج وعرق . . . ولكننا سنحققه حتماً . . .

هل أخطأت الطريق ودخلت بيت وزير الزراعة أو وكيلها على الأقل ؟ .

أثاث أنيق . . . وأجهزة حديثة من كل نوع ولون . . . وغرف نوم أربع ومكتبة . . . وصالة . . . ومطبخ كأنه غرفة أجهزة ألبكترونية . . . ودورة مياه نظيفة ومريحة .

* جان روجيه . . . كم فداناً تملك ؟ ! .

— ليس كثيراً . . . ثلاثة وعشرون هكتاراً . . .

* كم دخلك ؟ ...

— حوالى ثلاثين ألف فرنك . . .

وهو يأكل الدجاج والبيض ولحم الخنزير ويشرب اللبن مجاناً طبعاً من إنتاج أرضه . . . وزوجته تعمل بأجر فى مزرعة جاره . . . الذى يملك أرضاً أوسع تحتاج إلى أن يساعده فيها واحد . . .

والزوجة تتقاضى أجر ٩٠٠ فرنك فى الشهر أى تسعين جنيهاً مقابل الإشراف على حظيرة الحيوانات فى مزرعة الجار . . .

ولها بنت وولد . . .

بنت فى المدرسة الثانوية . . . فى القرية . . . أما الولد . . . ففى الجيش وقد تخرج من الجامعة . . .

وفيوليت بنت جان فى السابعة عشرة من عمرها . . . تعود من المدرسة . تذهب إلى حظيرة المزرعة تشترك مع أبيها فى حلب الأبقار . . . وتغذية الخنازير . . . وتنظيم الحظيرة . . . لمدة ساعتين . . . قالت لى إنها « رياضة يومية » وتتقاضى من أبيها أجراً على ذلك . . . ثلاثة فرنكات فى الساعة . . . تمكنها من قضاء ويك إند من حين لآخر ! . . .

أيمكن أن يكون ذلك الويك إند مع صديق . . . كما يحدث لبنات باريس ولندن وجنيف و . . . غيرها من العواصم الكبيرة . . .

هنا نصطدم بتقاليد الريف الأوربى . . . الخاصة شأن أى ريف فى العالم . . .

فى القرى الأوربية . . . لاحظت أن الفتيان يلتقون بالفتيات حقاً . . . ويسهرون فى بار القرية يرقصون . . . حتى منتصف الليل . . . ويتبادلون القبلات فى تلك المراقص . . .

ولكنك تلاحظ . . . أن القبلات فى الشوارع العمومية . . . شبه معدومة . . . وعند ما تغوص أكثر لتستبين حقيقة العلاقات الاجتماعية . . . تجد أن للآباء . . كلمة فى الزواج . . . وتجد أباً يضرب ابنته



بنت الفلاح الأوروبي

أحياناً إذ خالفت إرادته . . . و « مشت » مع رجل لا يريده .

وتجد حرصاً من كثير من البنات على العذرية . وتجد نساء القرية ورجالها أيضاً يتهامسون فى استنكار عن جانيت التى أنجبت طفلا غير شرعي . . .وعن « مارينا » التى تخون زوجها . . . وعند ما يعلم الزوج كثيراً ما يطلق زوجته .

وتجد للكنيسة نفوذاً كبيراً . . . على عواطف الناس وعلاقاتهم الشخصية . . .

ومثل تلك التقاليد . . . تختلف من مكان لآخر . . .

هى فى إنجلترا موجودة فى ريف أيرلندة الشمالية . . . واسكتلندا . . . أكثر من أى مكان آخر . . .

وهى فى فرنسا موجودة فى الجنوب . . . وفى إيطاليا أيضاً فى الجنوب . . وفى ألمانيا كذلك . . . وهى غير موجودة على الإطلاق فى هولندا ! . . . فالفوارق بين القرية والمدينة فى هولندا زالت فى كل شيء حتى فى التحرر والتحلل معا ! ! .

ولكن ما هو مستقبل تلك التقاليد . . . هل ستستمر . . . أو ستنزوى ؟ .

فى الحقيقة من مناقشات مع كثير من المهتمين بعلم الاجتماع . . . أن تلك التقاليد فى طريقها إلى الزوال أو بالأحرى الذبول . . .

إن الروابط الأسرية التى ضعفت فى المدينة الأوربية . . . تتفكك هى الأخرى يوماً بعد يوم فى القرية أيضاً . . . وسكان المدينة يزحفون إلى الريف بتقاليدهم وعاداتهم « وتحررهم » فى كل أسبوع يومان . . . يقضونهما فى مخيمات يختلطون بأهل القرية ويمرحون معهم . . . ويشتركون فى حفلاتهم الحلوية البريئة وغير البريئة .

ولم ألحظ أن أحداً فى أوربا يأسف على هذا الذبول للتقاليد فى الريف . . .اللهم إلا رجال الكنسة . . . الذين جذب بعضهم تيار التطور ،

هم الآخرون فبدأوا يدخلون الموسيقى والرقص فى الكنائس ليجذبوا الشباب إلى دور العبادة والاستماع إلى المواعظ . . .

* * *

من هم الفلاحون الثوريون . . . فى أوربا ؟

هم العمال الزراعيون فقط . . . إذا أمكن جوازاً اعتبارهم فلاحين وهم صورة أيضاً غير عمالنا الزراعيين . . .

إن العامل الزراعى . . . عامل فنى . . . يشتغل على ماكينة . . . ويكفى مثلا أن نعلم أنه فى بريطانيا يوجد جرار واحد لكل ٣٦ فداناً . . . وأن تسعين فى المائة من المزارع فيها محطات توليد كهرباء لإدارة آلاتها . . . وأن قيمة الآلات الموجودة فى المزارع الألمانية ألفا مليون ونصف مليون جنيه استرلينى ! ! .

وليس غريباً إذن أنهم يسمون الزراعة فى أوربا : « صناعة الزراعة » ! . . .

وهنا العامل الزراعى الأوربى يتقاضى أجراً عالياً نسبياً . . . يمكنه من السكن فى بيت نظيف مزود بالتليفزيون والثلاجة ويمكنه أحياناً أن يشترى سيارة صغيرة . . .

ولكن هذا العامل . . . يعيش فى تناقض دائم مع صاحب العمل . . . شأن أى عمال . . . فى أى صناعة أخرى . . .

وفى إنجلترا يبلغ عدد العمال الزراعيين ٨٠٠ ألف أى ٣٪ من العاملين . . .

وفى ألمانيا الغربية يوجد مليون وسبعمائة وخمسون ألف عامل زراعى . . . وتشكل اتحاداتهم قوة كبيرة . . . وهى ترتبط عادة بالأحزاب الاشتراكية والشيوعية .

وفى أحاديث عديدة مع كثير من هؤلاء العمال . . . أنهم لا يحلمون بقطعة أرض . . . يملكونها أو يزرعونها . . .

إن المسألة تختلف حسب درجة الوعى السياسى . . .

فالظاهرة العامة كما سنوضح فى مرة أخرى . . . أن عمال أوربا فى أغلب بلادها لا يفكرون فى الاشتراكية كما نفهمها نحن . . .

إنهم يفكرون فى أجر زيادة . . . ساعات عمل أقل . . . مسائل إصلاحية فقط . . . فقط أولئك العمال المرتبطون بالأحزاب الاشتراكية الثورية . . . هم الذين يحلمون . . . بالسلطة . . . وبوسائل الإنتاج فى يد الشعب . . .

نجوم السينما . . . والمثقفون !

لأنها تحمل فوق كتفيها رأساً لا يشير إليه الكتاب بقولهم هذا رأس جميل فحسب بل يقولون رأس بداخله جهاز يفكر . عقل مثقف . . . وهو شىء نادر بالذات بين الممثلات . . .

من أجل هذا وجدت نفسى أسعى فى باريس إلى مقابلة ممثلة السينما الفرنسية سيمون سينوريه .

وقد دبر لى صديقى روجيه سيرا مدير مجلة التريبيون اللقاء معها فى بيت كارمن سكرتيرة المجلة التى دعتنا نحن الثلاثة لتناول شىء من من الشراب .

وكان أول ما لفت نظرتى « الغريزية » للممثلة الكبيرة أن معالم السن التى تختفى عادة تحت تمويهات الماكياج تبرز على وجهها واضحة ، وثمة صرامة على ذلك الوجه . . . تبددها رقة وإشراقة ربما كانت انعكاساً لثقة كبيرة فى النفس . . . أو لنور الثقافة الذى يكسب المرأة جمالا ولو لم يكن ظاهراً فى التقاسيم ونمنمة الأنف وغمازات الذقن والخد . . . إلخ .

فى مظاهرة الجزائر المشهورة عام ١٩٦١ التى سار فيها مليون فرنسى . . . كانت سيمون فى المقدمة وعن يمينها إيف مونتان زوجها . . . وعن يسارها بريجيت باردو ! .

وكثيرون لا يعرفون ذلك الموقف الثورى الوحيد فى حياة بريجيت الغارقة فى تيار الاستعراضات الجسدية .

واشتراك سيمون فى هذه المظاهرة لم يكن الموقف الثورى « الوحيد» إنما كان واحداً من سلسلة مواقف منذ نهاية الحرب العالمية الثانية . . . كانت سيمون فى بعضها تغرق إلى أذنيها فى العمل السياسى المباشر . . . مثل تلك الخطب التى كانت تلقيها من فوق خشبة المسارح بعد أداء دورها تهاجم موقف الحكومة الفرنسية من ثورة الجزائر ! .

ولقد تفتحت عينا سيمون على السياسة وهى طفلة ، فقد كان أبوها عضواً فى الحزب الشيوعى الفرنسى وداهمتهم الحرب والنازية فشغل أبوها مكانه فى حرب المقاومة ، بينما كان أيف مونتان يسجل أغانى المقاومة الشعبية على اسطوانات سرية . . .

وانضمت سيمون وكذلك أيف مونتان إلى الحزب الشيوعى . . . ولكن الاثنين هجرا صفوف الحزب بعد ذلك .

فى غرفة مسيو بنديلو بالتليفزيون الفرنسى كنا جلوساً مع أيف مونتان نتحدث . . .

مونتان يعلل خروجه وخروج سيمون وغيرهما من الحزب الشيوعى بتلك الحجج التى تسمعها من المثقفين الذين هجروا صفوف الحزب :

الستالينية وتجميد سياسة الحزب وإغلاق الباب فى وجه تصعيد العناصر الجديدة . . .

* ولكن ذلك كان منذ سنوات على ما أظن .

يضحك قائلا :

— إذا كان ذلك صحيحاً فمن الصعب أن يعود الإنسان إلى بيت انتقل منه منذ سنوات ! .

طرحت سؤالا :

* هل هناك تناقض بين حياة الفنان وبين الالتزام الحزبى التنظيمى ؟ .
أجاب :

– محتمل . . .

ولقد حدث أن التقيت فى إنجلترا بممثل مسرحى صغير اسمه فيكتور كامبل حدثنى عن بيتر أوتول وقال لى إنه كان صديقاً وزميلا له ! . . .

وكشف لى عن جانب من حياة أوتول أنه كان يعطف على قضايا العمال بل والشيوعية .

وكان يساهم أحياناً فى بعض اجتماعات لجنة تحرير المستعمرات . . . ولكن أوتول كلما كبر واتسع نشاطه . . . كثر ابتعاده عن آفاق المشاكل والمساهمة المباشرة فيها . . . ومع ذلك فإن فى قلبه ميلا وتعاطفاً . ومن حين لآخر يبيعون له المورننج ستار وهى جريدة الحزب الشيوعى لقاء خمسة جنيهات دفعة واحدة !

الالتزام التنظيمى صعب على المثقف والفنان الأوربى الذى يعيش وسط حركة من التيارات الفكرية المتصارعة . . . الخصبة والمجدبة . . . ولكنها متنوعة تنوعاً كثيراً وغريباً . . .

ولقد ازدهر هذا التنوع والتعدد بعد الحرب العالمية الثانية التى هزت كثيراً من المعتقدات وحطمت مثلا كانت قائمة منذ عشرات السنين ودفنت نظماً كان قادتها يقولون مثلا على لسان جورنج «كلما أسمع كلمة ثقافة أتحسس مسدساً» ! . . .

ولم يعد هناك أى قيد على أى فكر من أى نوع . . .

وقد يكون هذا الفكر أوربياً وقد يكون وافداً من الهند أو من الصين أو من أى بلد عربى .

ولربما وجدت فى المتحف البريطانى مخطوطات عربية وفارسية لا توجد فى أية عاصمة عربية ! .

بل ستجد الكتاب الوحيد الذى ألف عن أثر العرب فى الحضارة الأوربية مؤلفاً بوساطة سيدة ألمانية !

والمثقف فى الأصل برجوازى صغير عادة . . . أى يشعر بذاته أكثر من أى فرد فى فئة اجتماعية أخرى . . . وأكثر الفئات تعرضاً لمرض تضخم الذات . . . فالتمرد والجموح .

وقد يكون هذا الشعور بالذات موجوداً قبل أن يصبح ذلك المثقف أو الفنان شيئاً مذكوراً فما بالك عند ما يصل إلى القمة .

إن النظام حينذاك بالنسبة للواحد منهم أشبه بقفص يسجن فيه . أو قميص أكتاف . . . يشل حركة أكتافه كما قالت سيمون سنيوريه وهى تتحدث عن « الديكتاتورية » داخل الحزب الشيوعى .

والعزوف عن التنظيم لا ينفى الالتزام بفكرة جيدة إنسانية أو حتى طبقية . . .

من ثم ستجد فى فرنسا كثيراً من المثقفين الذين يكادون يرددون نفس نظريات وأفكار وبرامج الأحزاب المختلفة دون دخولها . . .

ويشجعهم على ذلك السلوك أن الأحزاب تحتضنهم بل وتقدمهم حتى على أعضائها المنظمين الملتزمين . . . حتى ولو تناقض أولئك معها . . .

وقد حدث ذلك أيام عدوان إسرائيل على البلاد العربية . . . لقد كانت جريدة اليومانتيه مثلا تهاجم بعنف شديد كل من وقف إلى جانب إسرائيل . . . ولكنها كانت رقيقة مع جان بول سارتر . . . فقد انتقدته فى لين ويسر ! . . .

وعند ما وقع عدد من الفنانين والمثقفين الفرنسيين على بيان يؤيد إسرائيل ضد « العدوان العربى» ومن بينهم سيمون سنيوريه وأيف مونتان.. كانت اليومانتيه أيضاً رقيقة مع هؤلاء بالذات وهى تعاتبهم على انسياقهم

فى ركب التضليل الصهيونى . . .

فليس من بين هؤلاء من يمكن وصفه بالعمالة أو الصهيونية . . . وليس من بينهم من يمكن اتهامه بالتعصب ضد العرب . فسيمون كانت تؤيد العرب فى الجزائر وكذلك كان سارتر . . . والجميع الآن يؤيد فيتنام بحماس شديد .

فى باريس تتردد طول النهار فى الإذاعة . . . وفى البيوت أغنية لمطرب معروف اسمه «آدامو» اسمها «ماشاء الله» والأغنية تتحدث بكلمات عن البيت السعيد الذى يبنيه رجل يهودى هاجر إلى إسرائيل بعد أن عانى من الاضطهاد النازى . . . ولا يبغى غير السعادة له هو وأولاده وتعمير الصحراء لإقامة مجتمع سعيد ما شاء الله !

كيف حدث أن آدامو غنى هذه الأغنية التى تدعو لإسرائيل ؟

من كل الطوائف والفئات : طلبة ومهندسين وفلاحين ومدرسين وفنانين أيضاً ترسل إسرائيل دائماً وفوداً إلى أوربا . . . يلتقون بزملائهم من نفس المهن ، ويوطدون العلاقات والخبرات يساعدهم فى ذلك أمران :

— تبنى المنظمات الصهيونية ذات الإمكانيات المالية الهائلة لمثل تلك الزيارات . . .

— الأصل الأوربى لمعظم سكان إسرائيل وهذا يسهل لهم توطيد الصلات مع الأوربيين وبالنسبة للفنانين فإن الشركات الأوربية والأمريكية تبارك اللقاء بين الفنانين الإسرائيليين والفنانين الأوربيين وتشرك فنانى إسرائيل فى الأفلام والمسرحيات .

وكل نجم إسرائيلى يسافر خارجها أشبه بداعية لبلده . . . وهى دعاية مدروسة . . . إنها استغلال ذكى لتاريخ اضطهاد اليهود . . . وعملية تعمير الصحراء . . . وستار العداء العربى حول إسرائيل . . . ولقد حققت هذه السياسة نتائج كبيرة . . . أن آدمو صاحب أغنية ما شاء الله

نجحوا فى أن يجعلوه يتطوع للعمل فى إحدى المستعمرات اليهودية لأسبوع عام ١٩٦٦ ، وأيام العدوان فى حمى جمع التبرعات لإسرائيل تنازل عن أرباحه فى الاسطوانات التى بيعت من ما شاء الله فى أسبوع أيضاً ! .

أين نحن من هذا كله . . . ؟

لم يحدث قط أن سافر فنان مصرى إلى الخارج وفى ذهنه أنه ممثل لبلاده ليقيم علاقات صداقة مع الفنانين . . .

بعض الفنانين أقاموا فعلا . . . ولكنها علاقات من أجل الاشتراك فى فيلم « عالمى » لشراء مرسيدس أو فراء ثمين أو زراير ذهبية للقمصان لاستكمال كل معالم « الهمبكة » على حد التعبير المشهور لأحدهم ! . . .

المرة الوحيدة التى حدثت هى سفر أم كلثوم إلى فرنسا . . . ثم عبد الحليم حافظ إلى لندن . . . وقد رأينا كيف كانت النتائج الإيجابية لمثل ذلك السفر « السياسى » .

وفى باريس تقيم فنانة مصرية كبيرة اسمها فاتن حمامة ، لا تفعل شيئاً قط لبلدها . . . لا قبل ولا أثناء ولا بعد العدوان . . .

وقصة عمر الشريف « وولاؤه » لوطنه معروفة فلقد كان الخنافس الإنجليز أفضل منه عشرات المرات .

ليس غريباً إذن أن توقع سيمون سينوريه ومونتان وغيرهما على بيان تأييد إسرائيل . . . ونحن معزولون عنهم تماماً . . .

وليس ذلك تبريراً لموقفهم ولكن المرء لا يكتسب الوعى من السماء ! .

وهم من جانبهم لم يحاولوا بذل مجهود جدى لبحث قضايانا . . . ولكن أؤكد من ناحية أخرى أن الكتب أو المطبوعات التى تشرح قضايانا من وجهة نظرنا قليلة جداً فى السوق الأوربية . ومعظمها لمؤلفين أجانب . . .

وربما كان جان بول سارتر هو أكثر المثقفين الفرنسيين استحقاقاً

للوم فى هذا المجال . . . فقد أتيحت لهذا المثقف الكبير كل الفرص لاتخاذ موقف عادل ، وأثيرت حول زيارته لمصر مثلا ضجة أشبه بالضجة التى أثيرت حول زيارة المنطاد زابلن لمصر وقد كان حدثاً خارقاً حينذاك .

وعاد سارتر . . . فأدلى فى البداية بتصريحات متناقضة .

وأصدر سارتر عدداً من مجلة الأزمنة الحديثة فى ألف صفحة يضم آراء لحوالى خمسين كاتباً إسرائيلياً وعربياً حول النزاع العربى الإسرائيلى ؛ وقال إنه أراد الحياد التام وسيكتب فى الشتاء القادم رأيه الصريح . . .

وأخيراً حدث العدوان . . . فوقف إلى جانب إسرائيل . . .

والقول بأن موقف سارتر نابع من التفاف مجموعة من الصهيونيين حوله تؤثر فى فكره ، أشبه بالقول : إن أمريكا تقف موقفاً معادياً منا لأنها واقعة تحت تأثير النفوذ الصهيونى ! . . .

ليس من حول سارتر ستار حديدى . . . إنه يعيش فى أكثر بلاد الدنيا اشتعالا وتموجاً بالتيارات الثقافية . . . إنه ببساطة « اختار » ذلك الموقف بجانب إسرائيل . . . لأنه مقتنع به ، وهو ليس طفلا . . . إنه فيلسوف كبير . . .

ومع ذلك أود أن أقول للقارئ هنا . . .

إنه ليس لسارتر ذلك النفوذ الهائل الذى يصوره لنا بعض الكتاب هنا . . .

إن تيار الوجودية نفسها . . . قد ضعف بين الشباب الأوربى الذى تنتهبه تيارات أخرى اليوم . . . تيار « البروفوك » الفوضوى واليسار الجديد والكنائس والكاسترو ية والاتجاه الصينى . . .

وإذا كان سارتر قد استمر كظاهرة بارزة فى الحياة الثقافية الفرنسية حتى اليوم . فيرجع ذلك إلى تاريخه . . . وفلسفته التى لا ينكر أثرها فى الفكر الإنسانى .

ومن ناحية أخرى أنه اقترب أكثر فى السنوات الخمسة عشر الماضية من سياسة الحزب الشيوعى الفرنسى ، بل إنه يدعو إلى الماركسية فى كثير من كتاباته . . . فاكتسب تأييداً من أقوى قوة فكرية وثقافية فى فرنسا .

ولا أعتقد أن بول سارتر قضية ميئوس منها بالنسبة لمساندة حركة التحرير العربية . . . ولكن لا نضخم فى قيمة نفوذه .

وأيضاً لنستخدم الوسائل الملائمة للتأثير فى المثقفين والفنانين الفرنسيين والأوربيين .

وهذا يدخل فى باب : كيف نخاطب العالم . ونلتقى بعقله وقلبه معا؟ ...

الانبهار !

في طريقنا إلى مأمورية ضرائب هامستيد بلندن كنت أتصور أننا سنجد مبنى مزدحماً بالناس وقد عششت حوله عربات باعة السندوتشات والمشاريب الساخنة والباردة « لزوم » الحشود الجماهيرية حول وداخل المرافق الحكومية في مصر ! . . ولكني فوجئت بالمبنى الكبير وقد لفه الصمت والهدوء ولم يكن في ردهته الواسعة عند ما دخلنا غيرنا نحن . . صديقى أحمد البديني أحد المثقفين المصريين في لندن وأنا .

وكان لصديقى أحمد البديني المحامى فى لندن مشكلة لدى مأمورية الضرائب تتلخص فى استرجاع مبالغ من المال دفعها زيادة لمصلحة الضرائب منذ عام ١٩٦٤ .

تقدمنا إلى موظفة الاستعلامات . . . فسألت صديقى عن الشارع الذى كان يقيم فيه فى حى هامستيد فأجاب . . . فضغطت على زر فأضاءت خريطة معقدة بأسماء الشوارع وأمام كل شارع سهم يشير إلى رقم غرفة الموظف المختص والطابق . . .

فى نصف دقيقة كنا فى الدور الثالث أمام باب الغرفة ٤٧ .

الردهة هادئة وجميع الأبواب مغلقة ولا يقطع الصمت سوى دقات الآلات الكاتبة أو الحاسبة . . . ولا سعاة فى الردهات ولا أجراس . . . لا شيء فى مأمورية ضرائب مختصة بشئون ٧٠٠ ألف مواطن . . .

دخلنا الغرفة فاستقبلتنا سكرتيرة لطيفة بابتسامة رقيقة كرقة المكان كله...

قص عليها صديقى حكايته فى دقيقتين... فاستأذنت قليلا ... ودخلت باباً جانبياً وعادت بعد دقيقتين بالضبط ... لتقول تفضلوا ... حيانا السيد الجالس خلف مقعده فى أدب شديد ... وسأل على الفور صديقى :

— هل معك شهادة الزواج التى تعطيك الحق فى تخفيض الضرائب لعام ١٩٦٤ ؟

قدم صديقى الشهادة . . .

استخرج المستر من دولاب بجانبه دوسيهاً يحمل اسم صديقى . . . وراجع المعلومات ثم تكلم فى ديكتافون أمامه لشخص ما . . . قائلا . . . احسب لى كذا وكذا . . .

بعد دقيقة كان الرقم أمامه . . .

قال السيد لصديقى :

إن لك فى ذمتنا ٣٢ جنيهاً وسبعة شلنات وأربعة بنسات . . .

قال صديقى « كاذبا » :

إنى سأسافر إلى الجزائر بعد أربعة أسابيع ؛ فهل يمكن أن تحولوا لى المبلغ قبل هذا التاريخ ؟

قال المستر الإنجليزى فى دهشة ؟

لماذا نحوله ؟ . . . إنك ستأخذ نقودك الآن .

وفتح درج مكتبه . . . وأخرج دفتر شيكات وكتب المبلغ ووقعه وختمه بخاتم واحد كبير . . . ثم سلمه لصديقى دون توقيع إيصال بالاستلام أو ما شابهه . . . وقال له : إن ذلك الشيك قابل للصرف فى أى بنك أو مكتب بريد فى بريطانيا !

وخرجنا وأنا فى دهشة كيف لم تتجاوز عملية حساب ضرائبى منذ ٣ سنوات واسترداد أموال من الحكومة أكثر من عشرة دقائق ! . . .

ولقد كتبت هذه الحكاية بتفصيلاتها الدقيقة لما تكشف عنه من دقة فى النظام وسرعة فى إنجاز الأعمال . . . واستخدام واسع للوسائل الآلية فى العمل وأيضاً الثقة فى الناس . . .

وهذا النظام والتنظيم واحد من الأمور التى تبهر الزائر لأوربا ...إنك « تصطدم » بالنظام فى كل مكان ... وفى كل مظهر من مظاهر الحياة .

وطوابير شراء السلع وتذاكر السينما والمسارح والأوبرا أمرها معروف وطوابير انتظار وسائل المواصلات أيضاً . . .

فى ساعات الزحام وهى مواعيد التوجه للعمل والانصراف منه . . . تزدحم الأوتوبيسات والترام والمترو كما فى القاهرة . . . لكن الفرق أن الناس تقف على المحطات فى طوابير ولا تتزاحم على الأبواب . . . والسائق يقف فى كل محطة . . . ولا يتحرك قبل نزول وركوب الركاب . . . وفى داخل الأوتوبيس لا ترى أحداً يتأفف من الزحام فقد تعوده الناس . . . ولا تجد أناساً يتحدثون بأصوات عالية ولا تجد أيضاً ما نسميه نحن بلغة مهذبة هنا « أخلاقيات الزحام » ! ! .

ولكن « المنبهر » لو فكر قليلا لوجد أيضاً أن الراكب المتزاحم فى القاهرة معذور إلى حد ما . . . فنى أوربا يضمن كل راكب أنه سيصل إلى عمله لأن عدد الأوتوبيسات كاف . . . والمترو يسير بمعدل كل نصف دقيقة فى أوقات الزحام هذه أما هنا فى مصر . . . فإن لم يتزاحم المتزاحمون . . . فهناك احتمال كبير ألا يصل بعض الناس إلى أعمالهم إلا متأخرين نصف ساعة أو ساعة ! . . .

وفى الدواوين والمؤسسسات الموظفون والموظفات منكبون على عملهم فى دقة وسرعة تمتص كل دقيقة وثانية من وقت العمل . . . فلا قراءة صحف ولا شرب قهوة ولا رغى فى العلاوات والإنصاف . . . ولا زيارات فى مكاتب العمل . . .

لا غرابة إذن . . إنه من الصعب أن نجد أوراقاً أو دوسيهات على المكاتب متراكمة . . .

ولعل أكثر ما يبهر الزائر من مظاهر التنظيم . . . مصانع الأوتوماشن . . . وقد زرت مصنع سيارات فى برمنجهام . . . ومصنعاً للأدوية فى كولونيا بألمانيا الغربية . . . فأذهلنى كيف أن كل مصنع من هذين المصنعين الهائلين . . . والذى يقوم الواحد منهما على أرض لا تقل مساحتها عن

ضاحية المعادى مثلا . . . يحرك آلات ذلك المصنع الضخم عدد قليل من العمال من غرفة كبيرة مليئة بمئات المقابض واللمبات المضيئة فى تناسق غريب .

خد عندك البريد مثلا . . . البريد فى أوربا شىء يحلم به الكثيرون هنا ممن تضيع أو بالقليل تتأخر خطاباتهم . . .

داخل أى بلد أوربى لا يستغرق وصول الخطاب أكثر من ٢٤ ساعة . . . ولا تضيع الخطابات أبداً . . . بل أكثر من هذا تستطيع أن تضع فى الخطاب العادى نقوداً وتضمن أنها ستصل حتماً ! .

ونظام البريد المسجل يختلف عن النظام عندنا بعض الشىء . . . إن مصلحة البريد البريطانية مثلا تدفع تعويضاً عن أى خطاب مسجل يفقد فى حدود مائتى جنيه . . . ومصلحة البريد الإيطالية تدفع ١٨٠ ألف ليرة أى حوالى مائة جنيه ، والفرنسية تدفع ١٥٠ فرنكاً أى حوالى ١٥٠ جنيهاً ...

وأنت الذى تقدر قيمة التعويض . . . فتقول لمكتب البريد إن الخطاب المفقود كان يحوى نقوداً أو « مصالح » تقدر قيمتها بمائة جنيه مثلا . . . وكلمتك مصدقة . . . وتقبض على الفور . . .

والبريد يلعب دوراً تجارياً هاماً فى حياة أوربا المتقدمة اقتصاديا ... إنه يغنى عن المقابلات ويوفر الوقت لإنجاز الأعمال . . . ولا بد من أن تتلقى ردا من أية جهة على أية رسالة تبعث بها . . . ومن ثم فإن أصحاب الحاجات لدى المرافق الحكومية لا يتجمعون أمام الأبواب أو يزحمون الطرقات ويعطلون المصالح . . .

أما التليفون فمعجزة بالنسبة لمن يزور أوربا لأول مرة . . . فالبلاد الأوربية كلها تقريباً مرتبطة بشبكة أوتوماتيكية ، أما تلك التى لا ترتبط بها فتوصلك بها العاملة بعد دقيقتين ! .

مرة طلبت من لندن رقماً فى أكرا عاصمة غانا ... فجاءتنى به العاملة بعد ٤ دقائق !... ذلك لأن دول الكومنولث جميعها مرتبطة بشبكة تليفونية

لاسلكية تعمل ليل نهار . . . وبسرعة غريبة من أستراليا إلى الهند . . .

وإذا ما طلبت رقماً من لندن إلى روما مثلا وكانت كل الخطوط إلى روما مشغولة سمعت صوتاً مسجلا يقول لك إن الخطوط كلها مشغولة الآن . . . من فضلك اطلب بعد قليل ! .

والتليفون الذى يسجل محادثات من يطلبونك وأنت غائب منتشر كثيراً فى أوربا . . . وإذا حدث أنك أردت طلب رقم من أحد كابينات التليفون فى الشارع ولم يكن معك نقود تدفعها قيمة المكالمة . . . ما عليك إلا أن تطلب العاملة وتقول لها إنك تريد رقم كذا على أن يدفع من ستكلمه ثمن المكالمة ! . . . فتطلبه وتبلغه ذلك فإذا وافق أوصلتك به . . . وهكذا نفس الشىء ينسحب على التلغراف . إذا أردت إرساله من تليفون فى الطريق . . . إما أن تطلب من العاملة تقاضى قيمة التلغراف من المرسل إليه أو ضمه إلى حساب تليفونك الخاص إذا كان عندك تليفون ! .

وهنا سيتبادر إلى الذهن سؤال . . . إن ذلك قد يكون فرصة لتلاعب الناس وتهربهم من دفع قيمة المكالمات التليفونية أو البرقيات ! .

ولكن هذا غير صحيح . . . لا أحد يتهرب فى أوربا من مثل تلك المسائل الصغيرة . . . لا أحد « يزوغ » من أجر الترام أو أجر القطار . . . لذلك غالبية محطات السكة الحديد لا تجد لها أبواباً ليتسلم منك موظف تذكرة الركوب .

بل حتى البنوك . . . تستطيع سحب نقود فى أى فرع من فروع البنك الذى أودعت فيه رصيدك من أى مكان دون الرجوع إلى ذلك الفرع . . . ولكن فى حدود عشرين جنيهاً فقط . . .

ومن المحتمل طبعاً أن أسحب عشرين جنيهاً من فرع بنك باركليز فى برمنجهام بينما رصيدى فى فرع أكسفورد بلندن الذى أودعت فيه حسابى قد نفد . . .

هذا محتمل ولكنه لا يحدث أن « ينصب » أحد إلا بنسبة واحد فى

العشرة آلاف ، وهؤلاء تسجل أسماؤهم فى قائمة سوداء توزع على كل الفروع . . .

ويتحمل البنك الخسارة فى تلك الحالة . . . ولكن البنوك ليست ساذجة فإنها تضع حساباً لتلك الخسارة فى الفوائد التى يتقاضاها البنك عن القروض وفى رسوم زهيدة على الإيداع فى نفس الوقت مقابل ما يقومون به على راحة العملاء وإشعارهم بالثقة دائماً . . . وهناك مظاهر أخرى مثل المطاعم والمحلات المختلفة تقبل الشيكات بلا تردد من الزبائن . . . وبعضها يحتاط ويحدد المبلغ فى حدود خمسة جنيهات فقط . . .

وهذه الثقة فى الناس ليست عبثاً . . . فالواقع أن الناس هناك لا يسرقون أشياء صغيرة ! .

لقد قرأنا كثيراً عن تلك الأيام الخوالى أيام الخلفاء الراشدين عندنا حين كانت أشياء الناس تضيع فيجدونها فى مكانها فى اليوم التالى . . .

هذا موجود فى القرن العشرين فى أوربا المسيحية والملحدة . . . تنسى معطفك . . . حقيبة ملابسك . . . أو نظارتك . . . إلخ . تعود فتجدها فى مكانها أو فى أقرب مكان لحفظ الأشياء المفقودة . . .

لماذا لا يسرقون فى أوربا . . . وأعنى السرقات الصغيرة . . . لماذا لايوجد « حرامى حلة أووزة .. فى السجون الأوربية ؟ »

ليس أدل على صدق النظرة القائلة بأن الأحوال الاقتصادية تشكل حتى أخلاقيات المجتمع من مستوى السرقة فى أوربا . .

إن الناس « شباعى » نسبيا لايمكن أن يفكر واحد منهم فى سرقة نظارة أو التدليس على شيك بعشرة أو عشرين جنيها ..

وإنما المجتمع المتطور صناعيا وتكنيكيا لابد أن تتطور فيه السرقة تطوراً ملائما .. فمن يسرق يسرق بنكاً أو خزينة أو مجوهرات ثمينة .

إن التفاوت الطبقى عميق فى أوربا برغم ارتفاع مستوى المعيشة . . . فحيث يقبض العامل مرتباً شهرياً . . . يفى بضروريات الحياة يوجد

مليونيرات يشترى الواحد منهم لوحة فنية يعلقها على جدار قصر قديم بمائة ألف جنيه أو بأضعاف ذلك ...وثمة يخوت خاصة وطائرات خاصة ومطارات خاصة وحرس خاص وحريم خاص . . . وإلخ ! .

وتلتهب مخيلة الكثيرين من الناس البسطاء . . . بالحياة الرخيصة الهينة . . . فيحلمون بالثراء من أبسط طريق . . . وقد يظل الواحد أو « الجماعة » تفكر وتخطط أعواماً لسرقة بنك أو قطار أو خزانة . .

والغريب أن شعور الرأى العام الأوربى بالنسبة لسارق البنك هو شعور بالإعجاب والتقدير . . . فسارق البنك بطل يحظى بعطف الرأى العام . . . وبقدر براعة وضخامة المبلغ الذى استولى عليه بقدر ما تقاس بطولته ! .

وبرغم أن ذلك شعور منحرف إلا أنه يعكس إلى حد ما إحساساً مبهماً غير ناضج لدى الملايين فى أوربا بالفوارق الطبقية الحادة .

ولعل أكثر ما يبهر الزائر وخاصة الزائر العربى والأفريقى . . . الحرية الواسعة التى يتمتع بها الناس فى معظم بلاد أوربا . . . يبدو لك كل شىء كبرج بابل . . . كل إنسان يقول ما يشاء . . . ويشكل أى جماعة يريدها سياسية كانت أو اجتماعية . . . فوضوية كانت أو جدية . . . ودينية كانت – أو لا دينية – . . . ومذاهب أدبية وفنية متنافرة . . . وأزياء لا ضابط لها ولا رابط . . . وأركان يخطب فيها الناس يلعنون الدنيا والنظام الذى يعيشون فيه . . .

وتبدو لأول وهلة الصحافة حرة تقول ما تشاء . . . ويبهرك أن تجد الصحفى جالساً أمام رئيس الوزراء واضعاً ساقاً على ساق على شاشة التليفزيون يسأله ويستجوبه دون كلفة . . . ودون حتى كلمة « سيادتك » ورئيس الوزراء يرد ببساطة وكأنما هما صديقان حميمان !

ومن السهل على الباحث المتعمق قليلا أن يكتشف أن تلك الديمقراطية فى الحقيقة ستار لديكتاتورية واستغلال الطبقات الحاكمة فى أوربا . . . ففى

ظل تلك الديمقراطية « تقنع » أجهزة الإعلام شعوب أوربا باحتلال القوات الأمريكية لأراضيها . . . وتسخير جزء كبير من ميزانيتها للأغراض العسكرية . . . وتقنعها بذبح المواطنين فى الكونغو وأنجولا وموزامبيق . . . وأن الاشتراكية أقسى نظام فى العالم . . . وأن زعماء العالم الثالث قوم متطرفون مارقون على الحضارة الأوربية ! . . .

ولكن الباحث المتعمق إذا توقف عند ذلك التفسير الصحيح فعلا فإنه يكون قد ارتكب خطأ فادحاً . . . فذلك تبسيط للأمور لا تتفق معه تطورات الأوضاع وتشابكها فى المرحلة الحالية من التطور العالمى . . .

إنه من السذاجة أن نهز الأكتاف فى استهتار بتلك الديمقراطية الأوربية ونقول إنها ديمقراطية برجوازية زائفة . . .

فالحقيقة أنه فى ظل هذه الديمقراطية استطاعت الطبقات العاملة أن تنتزع مكاسب اقتصادية وسياسية كثيرة من الاحتكارات الأوربية . . . بل إن بعض الدساتير البرجوازية فى أوربا مثل الدستور الإيطالى دفع الشعب الإيطالى ثمناً له دماء مائة ألف من مقاتليه البواسل ضد النازية . . .

وفى ألمانيا معركة حامية منذ سبع سنوات بين الحكومة التى تريد إلغاء هذه الديمقراطية البرجوازية بموجب « قانون طوارئ » ، ويكون طوع يدها فى أى وقت وبين الهيئات والمنظمات السياسية التى تدافع عن الدستور .

وفى ظل تلك الديمقراطية استطاعت الشعوب الأوربية أن تساهم فى وقف اعتداءات الاحتكارات العالمية على الشعوب مثل ماحدث فى حرب الهند الصينية والجزائر والعدوان الثلاثى فى مصر عام ١٩٥٦ .

وترغم الآن احتكارات أوربا على تقديم تنازلات هامة للعمال تحت لافتات اشتراكية .

وفى ظل تلك الديمقراطية يترعرع كثير من الأفكار وتترعرع مائة زهرة فى الفكر والفن والأدب . . .

ولا بد أن يكون المرء على قدر كبير من الوعى ليدخل فى حوار من

ذلك النوع مع مثل ذلك المواطن الأوربى الذى يقول دائماً :

* إننا نعيش فى بلد حر ... بينما أوربا الاشتراكية لا توجد فيها حرية ...

وربما أجبت . . .

— ولكنها حرية للمستغلين من الرأسماليين ! .

* على أى حال إنها تضمن لى ألا يقرع جرس الباب فى بيتى ليلاً إلا بائع اللبن . . .

والإجابة المعروفة . . .

— ولكن فى الاشتراكية الحرية متوفرة للشعب . . .

وسيضحك محدثك الأوربى الغربى قائلا . . .

* تتبع إذن ما ينشر فى صحف البلاد الاشتراكية الأوربية ذاتها عن انتهاك الشرعية والديمقراطية الاشتراكية بالنسبة للاشتراكيين أنفسهم وعلى يد الاشتراكيين أيضاً ! . . .

وهذا صحيح ويقلق بال المفكرين الاشتراكيين فعلا . . . وقد قالوا لى فى الحزب الشيوعى الإيطالى مثلا . إن هذه المشكلة تشغل بال مفكريه . . . لأنها تصبح . آفة « للاشتراكية . . . وإذا جاز حدوث ذلك فى مرحلة البناء الأولى للاشتراكية فلا يجوز بعد انتهاء تلك المرحلة » .

ولقد تحدثت مرة مع مقدم فى البوليس الإنجليزى حول حرص القانون على عدم مداهمة بيوت الناس ليلا . . . وحول خلو شوارع المدن الأوربية تقريباً من رجال البوليس ليلا ونهاراً . . .

قال لى إنه طبعاً من المحتمل أن يستفيد بعض المجرمين من حكاية الحصانة الليلية للبيوت وقد يفلتون رغم حصار البوليس للبيت والحى . . . ولكن مقابل ذلك فإن ملايين السكان ينامون فى طمأنينة تامة أن بيوتهم لن تداهم ليلا بسبب خطأ تقع فيه سلطات الأمن مثلا . . . وراحة المجموع أثمن من إفلات مجرم أو عدد قليل من المجرمين . . . إن كرامة الإنسان فوق كل شىء . . .

وبالمثل يمكن فهم قلة انتشار رجال البوليس فى الشوارع . . . إن رجل البوليس مظهر من مظاهر السلطة والقهر مهما كان صديقاً للشعب . . . والناس لا يحبون السلطة . . . لذلك فهو أمر متعمد أن يكون عدد رجال البوليس فى الشارع أقل من القليل وغير مسلحين . . . وقد يفلت فعلا بعض المجرمين الذين يرتكبون جرائم فى الشارع . . . ولكن المكسب السياسى والنفسى المقابل لذلك لدى السواد الأعظم من السكان أكبر بكثير من إفلات هؤلاء المجرمين . . .

مثل هذا اللون من التفكير والفلسفة تبهر الزائر فى أوربا فعلا . . . فهى تعكس له احترام سيادة القانون . . . والضمانات بالنسبة للحرية الفردية . . .

إن تلك المسائل استقرت منذ عشرات السنين . . . نتيجة عمليات التطور بعد الثورة الإنجليزية فى القرن السابع عشر . . . وبعد الثورة الفرنسية فى القرن الثامن عشر . . . وبعد الثورات المختلفة فى ألمانيا وإيطاليا . . .

وهى على أى حال ضمانات تكون الطبقات الحاكمة على استعداد لإلغائها والبطش بالمواطنين فى اللحظة التى تهدد تلك الضمانات والحريات مصالحها . . . كما حدث فى ألمانيا وإيطاليا قبل الحرب العالمية الثانية وكما حدث أخيراً فى اليونان . . .

ومظاهر التقدم الحضارى الصناعى هائلة وضخمة فى أوربا . . . المصانع الكبيرة والقطارات السريعة . . . والبواخر الفاخرة . . . والسدود والكبارى الجميلة والهائلة . . . ومحطات توليد الكهربا العادية والذرية . . . ومصانع الصلب ومناجم الفحم والحديد . . . كل مظاهر الدولة العصرية التى يطالب بها الكتاب هنا موجودة هناك وتستطيع أن تحكى ليل نهار لشهر عن مظاهر تلك العصرية . . .

ولكن هذه العصرية ليست شيطانية . . . إنها تطور بدأ منذ مئات السنين . . . وهو تطور نما وازدهر من لحم أكتافنا نحن شعوب المستعمرات السابقة والحالية ... فقد استطاعت البلاد الأوربية بنهبها لبلادنا ... أن

تراكم ثروات هائلة استطاعت بدورها أن تطور فى أساليب ووسائل الإنتاج ...

فى أحد الاجتماعات فى لندن أثناء العدوان وقف أحد الصهاينة يعيب على العرب تخلفهم الحضارى : فتصدى له طالب إنجليزى اسمه فريد هوليداى قائلا :

— لعلك نسيت أن تخلف العرب كان بفضلنا نحن . . . لقد استعمرناهم عشرات السنين . . . لنعد لهم البترول الذى نهبناه منهم فقط وهم ينشئون مترو أحسن من مترو لندن الذى أقمناه بالشاى الهندى ! .

* * *

ويبهر فى أوربا معالمها ... معالمها التى صنعها الإنسان مثل برج إيفيل فى باريس وبرج لندن ... ومبنى اليونسكو الذى صممه ٢٤ فناناً ومهندساً من كل أنحاء العالم ... والكاتدرائيات والقصور ... والفاتيكان ... والتماثيل الرائعة ... ومتاحف العلوم والفنون : اللوفر والمتحف البريطانى ومتحف ميونيخ . . . ودور الأوبرا والمسارح و . . . عشرات من الأشياء . . .

وهناك أيضا الطبيعة . . فهى السحر الحقيقى فى أوربا . .

ربما كانت أنهار كنهر التيمس والسين والتايبر أشبه بترع بالنسسبة للنيل . . . ولكن المعجزة هى فى ما حول الضفتين من مناظر طبيعية خلابة . . . قمم الجبال الثلجية . . . والروابى الخضر . . . والغابات الكبيرة . . . والبحيرات الواسعة . . . كل هذه تضاف إليها قدرة الإنسان نفسه على تقديمها بصورة أكثر جاذبية وخاصة فى سويسرا . . . التى يخيل إليك أنها جنة الله فى أرضه فعلا .

قضيت يوماً فى حمام غريب قرب قمة جبل مون بلان . ولا أظن أنه بوسعى أن أصف بالضبط تلك البقعة الساحرة . . .

جبل مشقوق على شكل حرف سبعة وقمتان للجبل مكسوتان بجليد أبيض ناصع . . . بينما اكتسى سفحا الجبل المشقوق وبطنه بخضرة زاهية . . .

وعلى السفح أسفل القمة البيضاء بعدة مئات من الأمتار . . . أقاموا مركزاً سياحياً ضخماً على ارتفاع ثلاثة آلاف قدم يتلقى السياح

والمركبات المتزلقة على أسلاك الصلب . . . « التلفريك » .

وثمة مقاهي . . . وبارات . . . ومراكز للملابس وأدوات تسلق الجبال والترحلق فى الجليد .

وإذا ما تمشينا قليلا . . . التقينا بأشجار فراولة شيطانى وتبدو الفتيات الصغيرات والكبيرات الجميلات وهن يجمعن الفراولة ويتقافزن بين أشجارها كمخلوقات أسطورية لا تمت لعالمنا الأرضى بصلة ! .

ووسط هذا الفردوس الأرضى يقوم صندوق كبير جدا من الزجاج السميك . . . بداخله حمام سباحة واسع . . . مياهه لازوردية صافية تكشف عن قاع أزرق سماوى والأرضية من حوله رخام ملون وفسيفساء تتخللها أحواض زهور بنفسج جميلة . . .

ولعل المنظر الأكثر إثارة للنفس . . . لنفس زائر مثلى لم ير شيئاً كهذا من قبل ! . هو السحاب الذى يلف الصندوق الكبير . . . بل إن قطعاً من السحاب تدخل من الشبابيك فى أعلى الصندوق وتحلق فوق مياه الحمام مباشرة . . . وتلتف حول رءوس وأعناق السابحين والسبحات لحظة ثم تتبخر . . . وكأنك فى حلم من الأحلام . . . وتدغدغ الحواس . . . موسيقى رائعة . . . تغرى بالسباحة الراقصة أو بالرقص السباحى . !

ومن حولك فتيات جميلات جداً . . . بل إن كلمة جميلات تبدو جوفاء لا تعبر عن السحر الحقيقى لهاتيك الحوريات فى تلك البقعة الفردوسية على سفح جبل مون بلان . . .

وفى إطار هذا الجو . . . تبدو الحياة ذات قيمة أكبر من قيمتها فى أى مكان آخر . . . بل إن قوة المرء تزداد وتتضاعف فمن يستطيع أن يسبح نصف ساعة على شاطئ سيدى بشر يستطيع أن يسبح ساعتين متتاليتين فى ذلك المكان .

ومن المؤكد أن عمر المرء يطول لو أقام فى هذا المكان شهراً أو

شهرين ، لذلك لم يكن غريباً أن يكون على مبعدة مئات أمتار منا ركن روتشيلد الصهيونى المعروف . . . وهو صورة مكررة تقريباً من هذا المركز السياحى الهائل . . . ولوحده خصيصاً ! .

الحديث يطول حقاً عما يبهر فى أوربا . . . ولن نستطيع حصر ذلك أبداً . . .

ولكن ليس كل من يزور أوربا يبهر . . . إنه يعجب ويندهش ويستمتع . . . وأروع من ذلك أن يفهم لماذا كان ذلك التقدم . . . وأن يرى أيضاً الجانب الآخر من الصورة . . . ماذا يشوه الصورة فى أوربا وماذا وراء تلك الفاترينة البراقة من بطالة الملايين . . . وعشش الترجمان فى لندن وجلاسجو . . . ولحم الغانيات المعروض فى فتارين زجاجية فى هامبورج و . . . كثير جداً مما استوجب سخط مئات الألوف من الثائرين والغاضبين والمتمردين بقضية وبلا قضية .

وأهم من ذلك . . سؤال كنت أطرحه على كثيرين من العرب الذين سافروا إلى الخارج ولم يعودوا بعد أن يعدوا لى قائمة طويلة من الأخطاء والعيوب المنتشرة فى بلادنا العربية . . . لماذا لا تشعرون بالرغبة فى أن تقيموا عالماً كهذا الذى تعجبون به فى بلادكم ؟ ! .

لقد حلم خديوى سابق اسمه إسماعيل باشا بذلك يوماً . . . لماذا لا تحلمون أنتم . . . خصوصاً ونحن فعلا نبنى مجتمعاً متحضراً على أسس أفضل وأكثر إنسانية من تلك التى يقوم عليها المجتمع الأوربى الغربى الآن ! ؟

إلى اللقاء فى

رحلة ثانية وثالثة . . . ورابعة . . . و . . .

إلى أوربا وغير أوربا . . .

مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٦٩

٥٥٥